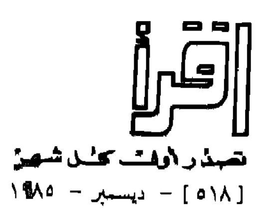
اقرأ

فتحي سعيد

في بلاط الصحافة والأدب





رئيس التحرير صلاح منتصر



فتحى سعيد

فى بلاط الصحافة والأدب



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

من وحى صاحبة الجلالة

كلمة :

كان القدامى إذا أرادوا أن يدمغوا أديباً بتهمة أو يسخروا منه بقول ، يقولون عنه : أدركته حرفة الأدب !

وكأنما لحقته لعنة ، أو نزلت به نازلة ، أو مسّه طيف من جنون !

فما بالك لو ابتلى بالاثنتيْن معاً : الصحافة والأدب ؟

قال شاعر من المحترفين – هو « جحْظة البرمكىّ » – يلعن الصنعة ويلعن أبويه اللذين أسلماه لتلك الحرفة المشئومة وأنزلاه من شامخ عال إلى خفض :

ما أنصفتنى يد الزمان ولا
أدركَتْنى غيرُ حرفة الأدبِ

لا حفظ الله حيثما سلكت
أمى .. ولا جادَ الغيثُ قبر أبى

ما تركا دِرْهما أصونُ به
وجهى ، يوماً عن ذلّة الطّلبِ

وكأن أبويه لو تركا له ما يقيه ذلّ الحاجة وهوان السؤال لما ارتكب هذا الإثم ، وهو الأدب ، ولما أجرم فى حق والديه بهذا العقوق !

وقال شاعر آخر يرثى عبد الله بن المعتز وهو الأمير الشاعر المترف الغَزِل الذى لم يهنأ بالخلافة غير يوم واحد ..

يقول وكأن حرفة الأدب هى التى أوْدت بالأمير وقوّضت عرشه :

ما فيه لوٌ ولا ليتٌ فتنقُصه
وإنما أدركتهُ حرفة الأدبِ !

هى آفة الأدباء إذن كما قالوا حتى اشتقوا منها معنى الحرمان وسوء الحظ ، إذا نطقوها بضم الحاء فيقال : « حُورِفَ وحرفة » أى بلاء وامتهان وهو ما ذهب إليه شاعرنا طاهر أبو فاشا فى كتابه الشّيق « الذين أدركتهم حرفة الأدب » ، وإن كانت فى الحالين – بضم أوّلها أو بكسره – تعنى المعنى المقصود ، وهو الابتلاء بصنعة تكلِّف صاحبها ما لا يطيق ، وتُبهظه ولا تعود عليه بعائد يكفل له ما تكفله سائر الحرف والمهن من لين العيش وأمانه ورغده ..

« والحرفة » هى الاكتساب . ويقال : هو يحرف لعياله ويقْترش لهم أى يتكسب هنا وهناك ويجمع القروش لسداد ثغر وإطعام فم ..

ولقد تكسّب الشعراء والأدباء بشعرهم ورسائلهم حيناً من الدهر

فى مختلف العصور ، قبل اختراع الطباعة ، وقبل ظهور الصحافة إلى عالم الوجود .. وكانت المطبعة حين ذاك هى النقش على الجلد والطين وعظام الحيوان والكتابة على الأحجار والخشب وجدران الزنزانات والكهوف .. وكانت الرواية .. أى ترديد القصائد وروايتها هى إذاعة العصر الرائجة وشاشة التلفزيون الصحراوية الأولى ..

وكانت الصحيفة اليومية الواسعة الانتشار هى القصيدة .. يطلقها الشاعر .. فتطير مع الريح وتتناقلها الأفواه والرُّكبان فإذا هى بين يدى كل قراء الجزيرة العربية وعلى لسانهم ..

وتغير الزمن وعرف الناس المطبعة والصحيفة والراديو والشاشة الصغيرة والقمر الصناعى .. واشتغل كثرة من الأدباء والشعراء ببلاط صاحبة الجلالة فأدركتهم الحرفتان معاً .. الصحافة والأدب !

وقد قامت الصحافة فى نشأتها الأولى على أكتاف الأدباء وسنان أقلامهم . فكان الصحافى الناجح مُزوداً بحاسة العمل الصحفى وموهبة الأديب صاحب القدرة على الصياغة والتعبير .

وقد ازدهرت الصحافة والصحف على يد عمالقة ورواد من رجال الأدب والفن الصحفى الذين جمعوا بين الموهبتين معاً الأدب والصحافة أى التعبير والنقد الحر .. أمثال :

عبد الله النديم ، ولطفى السيد ، ود . هيكل ، وبيرم التونسى ، والرافعى ، والجميّل ، وعبد القادر حمزة ، وإميل زيدان

والعقاد ، والمازنى ، وطه حسين ، وسلامة موسى ، وتوفيق دياب ، وزكى مبارك ، والزيات ، والمنفلوطى ، ومندور .. وكانت الصحف تنشر عدة قصائد دفعة واحدة فى صدور صفحاتها .. وكان لهذه الأقلام فى الصحف اليومية أو المجلات الأسبوعية مكان الصدارة فى الإقبال والتوزيع بما امتلكت من حس صحفى وملكة أدبية قادرة على التعبير والرأى الحر والجدل المثمر الخصيب من خلال إثارة المعارك الأدبية والسياسية المعاصرة .. فى جسارة وعمق .

ويختلف الذين احترفوا الأدب لأنه طريقهم الوحيدة وقدرهم الذى لا فكاك منه ، ولأنهم لا يصلحون لصنعة أخرى ، عن الذين احترفوا الأدب والصحافة ؛ لأنه أدنى السبل وأيسرها إلى الرزق والوصول إلى الشهرة لذلك لجأ المحارفون الأول إلى مُرتَزَق غير الشعر يتكسبون به لقمة العيش ، إيماناً بأن حرفة الأدب هى صناعتهم الوحيدة التى مهروا فيها . وأن الثانية مُنْتجعٌ .. لتكاليف الحياة وأعباء العيش .. فاحترف كثير منهم مهناً أخرى ليدخروا طاقتهم الإبداعية كاملة حرّة للأدب .. فكان منهم : الورَّاق والنسَّاخ والكحَّال والكوَّاء والرفَّاء والفران والقصَّاب ، كما كان منهم فيما بعد : المعلم والمهندس والطبيب والمحامى ورجل القضاء وكلهم أدباء وشعراء أجاويد أدركتهم حرفة الأدب ، أى ابتلوا ببلاء هذه الصنعة بما فيها من معاناة وإكداء وعطاء ..

وفى نفس الوقت امتهنوا مهناً أخرى هى قوام عملهم وصلب

دخلهم حتى لا يهدروا موهبتهم الأولى فى طلب الرزق كما قال واحد منهم :

يا ليتنى لا كنت جزارًا ولا أصبحت شاعرْ

* * *

وقد أتيح لى أن أكون واحداً من أبناء هذه المهنة وعاشقًا فى بلاط جلالتها اعتقاداً وإصرارا على أنها أنسب المهن وأرحمها بقدر ما فيها من العذاب ..

هى أنسب المهن لمن أدركته حرفة الأدب وجرفه مضض الشعر فآثر أن يصون الحرفة على ما عداها بأن يمرح فى بلاط صاحبة الجلالة الفسيح الرحيب لا سجن الوظيفة الضيق الرهيب !

وقد ضاقت به رحاب كل وظيفة وتغرّب فى البيداء والثغور والقرى ينفق الأيام والليالى فى التجريب والتجوال وانتظار ما يجىء .

وآن لزهرة البداية التى تفتحت فى حدائق السفر والغربة أن تروى من ماء النهر وتستقر على ضفافه ..

كان العشق الآخر بعد الشعر .. وهو عشق قديم كان يطفو فى نهر الطموحات الأولى وحالت دونه الأيام طويلا ..

حتى آن له أن يرسو على شاطئ تلك الملكة غير المتوجة صاحبة الجلالة .. الصحافة !

وفى رحابها مرَّ عَلَىَّ ربع قرن من الزمان أو يكاد .. مبتليا بحرفتها ، قريرًا بقدراتها ، نائياً عن صراعاتها ، قانعًا بالوقوف تحت مظلتها دون سائر المظلات فى قيظ العاصمة اللافح !

لأن العشق الأوّل والأثير كان للحبيبة الأولى .. وهى القصيدة ، أما هى فكانت محبوبتى الثانية ..

نقِّل فؤادك حيث شئتَ من الهوى
ما الحب إلا للحبيبِ الأوَّلِ

وهذه الصفحات ، بعض حصاد الحرفتيْن : الصحافة والأدب .

أبريل ١٩٨٣ — فتحى سعيد

ذكريات في ذكراها
جيوكاندا .. طماى الزهايرة

ستظل أم كلثوم عبر العصور « جيوكاندا » القرية المصرية وستظل مدى الدهور « موناليزا » الشرق العربي « جيوكاندا » ريفية جديدة لم ترسمها ريشة « دافينشى » العظيم لإحدى جميلات فلورنسا .

وإنما رسمتها ريشة الحقول وأعواد السنابل ، ولوّنتها زهرات القطن وسيقان البرسيم ، وسقتها دموع السواقى وحبّات التوت ، ورفّ على فمها طائر الفجر وفى فمه حسوة من ماء النيل ، وعلى منقاره غصن زيتون ، وفى صدره شوك الوردة الحمراء .. وسكب نفسه على شفتيها وهمس فيها بسر الخلود .. فكانت الابتسامة الدائمة الشهيرة .

تلك الابتسامة الغامضة التى حار فى شرحها الشارحون ، والتى مازالت تبهر المتطلعين إليها على جدران « اللوفر » .. ولم تكن إلا ابتسامة البسطاء من أبناء النهر العريق .. أولئك الذين تألقت

قلوبهم والتفت أرواحهم حول اللوحة الخالدة لتكون لها إطار الخلود .

عرفتُ أم كلثوم منذ الطفولة ، شأنى شأن كل أطفال الأربعينيات حين تتسلق آذانهم فى الليل مئذنة الهواء ، فيطيرون على بساط الريح عبر صوت ساحر هو صوت أم كلثوم .

كان صوتها مائدة الشواء فى ليالى القرية القمرية ، وقد أتيح لنا السهر فوق مصاطب الصيف من أجل عيون أم كلثوم .

وكان صوتها مدفأة الشتاء فى زوايا البيوت بالمدينة حين نلتف حول آبائنا الشيوخ وقد دبّ فيهم الشباب وهم يستروحون ذكريات انطوت ، شحذها صوت أم كلثوم .

كانت لياليها عشية عطلة تحتفل بها الأمهات وقد عمرت جيوبهن أوّل كل شهر .. فيغدقن لنا العطاء على غير العادة ويسمحن لنا بالسهر وحمل مفاتيح الدار حتى لا ندقّ الباب على الغافين . ا فى هذه الليلة المباركة .. ليلة أم كلثوم ا

كان هذا الصوت الفريد سمة بارزة فى مراحل نموّنا .. منذ كنا أطفالا لا نجيد فنّ الإصغاء ولكننا نجيد فن اللعب وشقاوات الليل بشفاعة أم كلثوم ... ومذ صرنا شباباً عرف خفق القلوب ولوعة الوجد فشرب حتى الثمالة من صوت أم كلثوم .

حتى صرنا كهولاً نلوك الذكريات ونستعيد طفولة القرى وشباب المدائن وندفن وجوهنا فى صدر صوتها العميق الحنون .

هكذا عرفتها دون أن أراها وهكذا عرفها أبناء مصر إلى أن رأيتها وجهاً لوجه ، وجلست إليها ذات ليلة لا تنسى منذ أكثر من عشرين عاما .

ولذلك حكاية تحكى :

ليلة القدر وعجلات القطار :

كنت طالبًا بجامعة الإسكندرية فى مطالع الخمسينات حين أعلنت جريدة الأخبار ، عن مشروع لها لأول مرة اسمه « ليلة القدر » ملخصه أنه إذا انشقت لك الطاقة فى ليلة القدر ماذا تطلب ؟ قل ونحن نحقق لك أمنيتك !

وتعجبت للفكرة ! أية دعاية تلك ؟ وهل ذلك صحيح ؟ وشغلنى الأمر طوال رحلتى اليومية بقطار الصحافة فى الصباح من دمنهور ، حيث أقيم ، وقطار العودة آخر الليل من الإسكندرية ، حيث أدرس ، وقلت لنفسى إن كانت دعاية للجريدة فلأكتب لها وأتحقق . ولكن ماذا أطلب لو انشقت السماء ورأيت ليلة القدر فعلاً ؟

هل أطلب « السِتْر » كما طلبت جداتنا فى القرية حين انشقت لهن طاقة ليلة القدر ذات مرة ؟ هل أطلب حلاً لمشاكلى العائلية مثلا .. معاشاً لوالدى الشيخ الذى خرج بلا معاش ؟ هل أطلب عملاً بالعاصمة يعيننى على هواية الكتابة والنشر وإكمال الدراسة

وأعباء الأسرة هرباً من تبديد الطاقة اليومية فى مضيق التدريس صباحاً فى مدارس محرم بك ، والدروس الخصوصية فى حارات « باب سدرة وكوم الدكة » فى المساء ؟

لا .. هذه مشكلات خاصة تمسّ الكبرياء ولا تُحل بالدعاء فماذا أطلب إذن ؟

لجأت لأقرب مكان على شاطئ البحر أتطلع إلى بساط الزرقة وأراقب الأمواج وهى تتسابق موجة وراء موجة وكأنها تودّ اللحاق بها عبثًا .. وغمر صوت أم كلثوم وجه البحر .. ورنت فى سمعى كلماتها وكأنها تتغنى بالمنظر الذى أراه .

وهبطت الفكرة .. لأتصوّر نفسى عاشقًا متيماً يعانق خصر الحبيبة على شاطئ البحر ويرنو للموج الأزرق فيه وفى عينيها ويحلم أن تغنى لهما أم كلثوم .. ودبّجت خطاباً بهذا المعنى وأفرغت فيه كل ما أملك من بلاغة وعشق .

ومرّ عام .. ونسيت الأمر تماماً حتى وصلت برقية تدعونى أنا وخطيبتى لسماع ولقاء أم كلثوم وقضاء ثلاث ليال فى القاهرة على حساب « أخبار اليوم » .

وتذكرت الحكاية لقد انطلت الحيلة .. وأوقعت نفسى فى ورطة .. وأسقط فى يدى وعرضت الأمر على بعض زميلاتى فرفضن .. إنها فضيحة مصورة ستظهر فى الصحف ولسنا مخطوبين ولا عشاقًا .. ولو بهرتنا الفكرة وفعلنا فكيف نواجه أولياء الأمور

وإدارة الجامعة ؟ من أين لى بخطيبة أو حبيبة إذن ؟ وتقاعست عن الذهاب وفى آخر لحظة قلت لشقيقتى :

ما رأيك لو سافرنا القاهرة الآن ودعوتك لسماع أم كلثوم هذه الليلة ؟

وفى لحظات ركبنا القطار وشرحت لها الحكاية ووصلنا قبل موعد حفلتها بدقائق .. وفى مبنى الأخبار وجدت « وجدى قنديل » فى انتظارنا فقد كلفه « على أمين » أن ينتظر حتى موعد آخر قطار يصل من دمنهور للقاهرة .. وأخذنا فوراً إلى سينما « قصر النيل » حيث استقبلتنا كوكب الشرق وعلى الفور كعروسين .

قبلة للعروس ونكتة على العريس !

كنت قد نَبَّهت أختى ألاّ تتكلم كثيراً وأن تترك لى الإجابات وأن تكتفى بذكر اسمها واسم الأب ونغفل اللقب حتى لا يفتضح أمرنا ، وأن نمثل دور العروسين .. وقلبت خاتماً فى يدها فبدا « كدبلة الزواج » واستعرتُ « دبلة ذهبية » من صديق سبق له الزواج حتى تنطلى الحيلة أكثر .

وفى غرفتها استقبلتنا كوكب الشرق .. وبدت لى للوهلة الأولى كأنها « الهرم الرابع » فى تاريخ مصر ..

قامة مهيبة شامخة كأنها شجرة خضراء وارفة الظلّ .. وروح

ناصعة شفافة .. وانجذاب يشدّك إليها من الوهلة الأولى .. وموكب فخم من الأضواء والورود حولها فتحت ذراعيها وقالت :

« أهلا بالعرسان .. تعالى لأقبلك يا عروسة .. وقبلت عروستى .. أى أختى .

والتفتت إلىّ وقالت : تعالَ لأقبلك يا عريس ..

وفرحت واندفعت إلى ذراعيها المفتوحتين مغمضاً عينى منتظراً قبلتها التاريخية مراقبًا عدسات التصوير وهى تسجل القبلة الخالدة .. وضمتنى إلى صدرها برفق وقالت ضاحكة :

« أنت صدقت برضه إنى حابوسك » .. ودوّت الضحكات .. وجلسنا ودار حوار طويل .. كيف تعارفتما ؟ ما هى دراستك يا عروسة وأى جامعة ستدخلين وما رأيكما فى الحبّ والزواج وماذا تريدان أن تسمعا .. كل ذلك وعروستى « المزعومة » تنظر إلىّ وتتلعثم فى الإجابات وتنتظر منى العون وحين أتكلم .. تشخط فىّ أم كلثوم :

– لا تتكلم أنت .. أنّا أسألك رد .. أريد أن أسمعها هيه .

وكذبنا بعض أكاذيب بيضاء والتقطوا لنا عدة صور تذكارية وجلسنا فى أوّل صف .. بجوار « أحمد رامى » وغنّت لنا ما طلبناه من أغانٍ وبين الوصلات دعتنا إليها وطلبت لنا «شربات » وواصلنا الحديث ، وانتهى الحفل وعيون الحاضرين تتابعنا وتحسدنا على رؤية أم كلثوم مرتين فى ليلة واحدة .

من أخبار اليوم إلى مجلة لايف

وفى الصباح .. التقينا « بعلى ومصطفى أمين » .. قامتان فارعتان ، ووجهان تَوْءَمان لا تفرقهما عن بعضهما .. وسجائر « اللاكى ستريك » والغرفة الفاخرة .. وكانت أول مرة أراهما فيها أو أدخل دارا صحفية فى حياتى .

ودار حوار طويل .. كيف استقبلتكما كوكب الشرق ؟

هل رحبت بكما ؟ ماذا غنت لكما ؟ لماذا طلبتما هذه الأغانى بالذات ؟ ما النكتة التى قالتها لكما ؟

كيف كانت الرحلة ؟ أى فندق تحبان النزول فيه ؟

ما هى هوايتكما ؟ ما رأيك فى صحف الدار ؟

لماذا لا تتكلم العروس وتتكلم أنت .. دعها تحكى ..

هل أنت فلاح ؟

اجلس مع « وجدى قنديل » وقل له حكايتكما من البداية للنهاية .. أنت محظوظ ستظهر صورك مع عروسك فى صحف العالم فقد تصادف وجود « هنرى لوس » ملك الصحافة فى العالم وصاحب مجلات « لايف وتايم وفورشن » فى القاهرة ولم يصدق أن هناك من يطلب سماع أم كلثوم فى ليلة القدر ..

وسينشر الموضوع فى مجلة لايف الشهيرة التى توزع ملايين النسخ .

حوار طويل سريع الكلمات يديره الأخوان التوءمان بلباقة وكأنهما محققان ينتزعان منك اعترافاً ما .. وبسرعة مائة سؤال كأنها اختبار ذكاء .. مع أكواب الليمون والقهوة المتتابعة .

وعدنا من القاهرة وفى رأسى دوار وفى الجعبة ذكريات .

أغنية لم تتم

هذه هى المرة الأولى التى رأيت فيها أم كلثوم فى مطالع الخمسينات أما المرة الثانية فلم أرها فيها .. ولذلك حكاية أخرى تقال :

كان ذلك قبل رحيلها بعامين . كانت تستمع إلى لحن جديد للموسيقار « رياض السنباطى » بصوت « فدوى عبيد » وهو قصيدة اسمها « لا تكابر »، أذيعت مرات وطويت كالعادة فى أدراج الإذاعة المنسية .

سمعت أم كلثوم هذه القصيدة وطلبت السنباطى بعد انتهائها فوراً ، ودار حديث تليفونى طويل حولها ..

وبالتالى دار بين السنباطى وبينى حديث حول ما قالته أم كلثوم ، وانتهى الحديث إلى لقاء فى الصباح الباكر بحديقة

جروبى كعادة السنباطى فى تناوله فنجان شاى السابعة صباحاً كل يوم .

والتقينا ، وتحدث السنباطى كثيراً عن أم كلثوم .. عن ولعها بالكلمة الحلوة ، عن حسّها الموسيقى ، عن عشقها للشعر ، عن شخصيتها العملاقة ، عن رأيه فيما قدمته من أغنيات حديثة امتلأت برنين النحاسيات وكهربة الآلات .. على حدّ تعبيره .. رفض هذه الألحان غير الشرقية التى لا تطاول فن زكريا أحمد والقصبجى والشيخ أبو العلا ، ورفض هذه الكلمات التى لا ترقى لقمم بيرم ورامى وشوقى وناجى .. وكيف اختلف معها على هذا كله .. وبلغ الخلاف حدّ القطيعة لسنوات ، وتعثرت بينهما قصيدة « مصر لم تنم » التى لحّنها السنباطى عام ١٩٧٠ فغناها غيرها .

كانت أم كلثوم حريصة على أن يكون السنباطى بالذات أقرب القلوب والآراء لأعمالها الفنية ، ولم تكن تخرج بأغنيتها على الناس إلا إذا أجازها السنباطى الذى كان وراء اختيار كثير من الكلمات ، خاصة الأشعار ، لكوكب الشرق .

واستغرقت أم كلثوم كل الوقت ، وغمر وجهها المكان حتى طال قرن الشمس وانحسر الضحى .

كان السنباطى يتحدث عنها حديث العاشق لفنّها وذوقها وعذوبة روحها ، وذكريات عشرة فنية امتدت طوال سنوات .

وانتهى اللقاء إلى كتابة قصيدة خاصة لم تنشر من قبل تكون مزيجاً من العشق والصوفية والوجد ، وأن تظل فى طَىِّ الكتمان حتى تنشر فى أكبر جريدة يومية واسعة الانتشار .. هى صوت أم كلثوم .

وطرت على جناح الذكريات .. وتألق وجه أم كلثوم وصوتها كأنه الغمام يملأ سماء السنين .. من الطفولة إلى الكهولة وتذكرت ليلتى « الملفقة » معها ووددت لو اعترفت لها بهذه الكذبة البيضاء .

كانت أوّل مرة أفعل ذلك .. أن أكتب قصيدة عمداً أو وفقًا لرغبة .. ولم أكتب قصائد للغناء قط ، وما لحن وغنى من قصائد كان اختياراً من بعض الدواوين أو الصحف ، وتراجعت أول الأمر ، ومر عام وأكثر وكدت أنسى .

وفجأة أشرقت الكلمات دون عمد ، وولدت القصيدة على سجيتها ، وأخذها السنباطى ، ولم يبق إلا أن تنشر فى « جريدة أم كلثوم » ، أقصد فى الصفحة الأولى من حنجرتها الواسعة الانتشار .

وقلت لنفسى : أوّل شىء سأفعله حين ألتقى بها أن أعترف لها بأن لقائى الأوّل بها كان لقاءً مكذوباً ، وأننا كنا عروسين مزيفين .

ولكن هذا الاعتراف لم يحدث ، لأن هذا اللقاء لم يتم ، فقد دهم المرض كوكب الشرق وصارعها وصارعته واضطرت إلى أن تخلف موعدها على غير العادة .

نعم .. لقد أخلفت أم كلثوم موعدها ورحلت دون أن يتم اللقاء الثانى .

رحلت وفى جعبتى لها ذكريات ، وعلى لسانى لها اعتراف ، وعلى فمها لى : أغنية لم تتم !

الرحيل يوم الهول الأكبر :

.. والتالتة أكتب إليك والست بتغنى

« الأوله يا جميل لك حق تتباهى
والتانيه جانى الجواب والشمس وضحاها
والتالته أكتب إليك والست بتغنى
« سلوا كؤوس الطلا هل لامست فاها ؟ »

***

وتساقطت الكلمات من ذاكرتى تلاحق الدمعات .. فقط تحجب سطور الرسالة وكأننى أقرأها لأول مرة .. أتفرس فى الكلمات وأحس بالمداد ينبض فى حروفها كالدم الحار .

كان يجلس فى ركن من المقهى عاكفا على الورق والقلم .. يغرس عينيه الكليلتين فى بياض الصفحات حتى لتكاد حباتها تخترق زجاج نظارته السوداء لتنكفئ على الورق ..

وكان صوتها عبر الأثير ينطلق كأنه خرير نهرنا الذى لا ينضب أبدا ووقعت القافية على القافية كما يقولون .. وانزلق بيت شوقى من فم أم كلثوم .. على قلم الشاعر فاقتنصه .

وماتت ام كلثوم لتعيش أغنية خالدة على فم مصر ..

ومات صاحب الكلمات ليعيش حفنة أشعار وأشباح طفلين وحيدين وذكرى من بعيد .

فى نفس اليوم الذى رحلت فيه أم كلثوم مات الشاعر البائس الحظ « حامد الاطمس » وكأنه لم يجد يوما أشد هولا من هذا اليوم ليرحل فيه .. وكأنما لاحقه القدر ليدرجه فى قائمة الأموات فى يوم تصدرت فيه القائمة كوكب الشرق تماما كما رحل من قبل صديقنا الأديب عبد المعطى المسيرى يوم وفاة عبد الناصر .

وتساءلت أى قدر ؟ ربما أراد صديقى أن ينتقم من مرارة الصمت والكبت حيا .. فاختار يوما مشهودا ليموت فيه .. يوما لا ينساه الناس .. وقد شيعوا فيه شعاعا ظل يضىء لياليهم نصف قرن وأكثر .. لو صدق التخمين فهو أذكى ميّتا منه حيا لأنه نجح ولو للمرة الأخيرة أن يثبت وفاته مادام عجز عن أن يثبت حياته ..

وعدت إلى الرسائل يكتبها لى .. وأرد عليه ولا تغفل عن أم كلثوم أبدا أو قل لا تغفل هى عنا أبدا كأنها جناح طائر أليف يرفرف بنا أينما يطير :

ان كان لى حق التباهى .. بيكم اتباهى
والتانيه « شمس الأصيل » والنفس سوّاها
شوقها إليكم فقالت بالزجل نغـما :
« جـرت على فم داودٍ .. فغنـاها » .

دائما أم كلثوم .. عطر القوافى ودفء الكلمات نتسلق صوتها وكأنه المئذنة تشارف السماء وتنطلق عبرها كلمات :

« الست بتقول .. وقولها هيّج الاشجانْ
«وانا لو نسيت اللى كان» ازاى اكون انسان
« والليل يطول ع الغريب » لما عليه يخلا
« وازاى اقولك .. زمان » كنا .. وكنا زمان

* * *

وتتراوح الأزجال بيننا .. وتحجب الدموع بقايا السطور .. وتختلط الأشجان بالأشجان . حزن شامل يتغلغل فى قلوب الملايين لحبيبة الملايين .. وحزن آخر خفى دفين يعتصر قلب صديق على شاعر لا تعرفه الملايين .

وتساءلت أى قدر ؟ .. أكان على موعد معها فى ساحة الموت ؟ نفس الشىء .. ونفس اليوم .. نزيف دم . غيبوبة .. ثم موت ..

من كان يستطيع القول بأن الشاعر حامد الاطمس الذى جاوز الأربعين بقليل يموت فى نفس اليوم الذى أفل فيه نجم كبير وأن نبأ موته سيطوى فى الزحام كما تطوى الموجة العابرة فى لجة الطوفان الهادر ..

وأطوى الرسائل ويدور شريط الذكريات ..
أما هى .. فكوكب الشرق غير منازع .

وأما هو .. فبائس غريب تجاسر وأقلع فى بحار الموت .. يوم هبوب العاصفة ..

واحد من أبناء مصر المشهورين المغمورين معا . مكدود مجهد فشل فى أن يخلع جلده ليرتدى جلد غيره .. وعجز أن يكسب ملامحه معنى الابتسامة فظل واقفا مكانه بنفس العبوس والقتامة حتى مات .. من يكون وهل يستحق فى يوم الهول هذا أن تقول فيه كلمة وداع كتلك التى قالها شاعر النيل للمنفلوطى حين مات يوم نفى سعد :

اخترتَ يوم الهول يوم وداعٍ !
ونعاكَ فى عصْفِ الرياح الناعى .

ولكنه رغم هذا لم يكف عن الغناء للحياة والإنسان وعن انتزاع لقمة العيش بالأظفار والأسنان .

لنسمع رأى الآخرين فيه .. رأى من ؟ . بيرم .. والعقاد ورامى .

قال بيرم لنجار السواقى

كتب له بيرم التونسى يقول :

فن الزمل محتاجْ
لعبقرى زيك

فى نورك الوهَّاجْ
يمشى على ضيك

كان ذلك منذ ربع قرن .. وكان صاحبنا يتيما فقيرا يعمل « نجارا للسواقى » فى ريف دمنهور ويستعين على شقاء النهار والليل بالزجل وذات ليلة كتب لبيرم يقول :

القافية تسجد لك والكل يشهد لك
والفن من فضلك
جددت أوزانه أصبح رفيع شانه
ورفعت يا بيرم فى الدنيا سلطانه

ودارت به الأرض وهو يرى أمير الزجل يمنحه لقب عبقرى .. ومن يومها بدأ نجار السواقى يتطلع إلى أعلى ويشق طريقه ليكون زجالا .. ينفق نهاره ويطوف بالقرى بين دق الشواكيش والفارة والمنشار .. ويقضى ليله فى كتابة الأشعار والمذاكرة للابتدائية .. كتب عن كل الطوائف عن الصنايعية والفلاحين وعمال المقاهى والخبازين أمام الفرن والأنفار :

صباح الخير على نارك يا بيت النار
يا والع والرغيف جُوَّاك غريب الدار
يدخل عجينةً ويتطَّلع غدا أنفار ..

وعرفت أشعار نجار السواقى طريقها إلى الإذاعة وعبر الصحف والمجلات .

وقامت معركة بورسعيد فارتفع صوت الشاعر وانضم إلى صفوف المقاتلين فيها :

تركت الفارة والمنْشارْ
ما أنا نجار
وشلت سلاح وباتدرب
وباضرب نار
أنا وكتير صنايعية

ونال هذا الزجل جائزة مجلس الفنون وميدالية الشعر الذهبية .. وسافر لأول مرة للقاهرة .. ليجلس نجار السواقى بجوار بيرم والعقاد يأكل « جاتوه » ويشرب الشاى ويتسلم الميدالية الذهبية ليبيعها حتى يجد ثمن تذكرة العودة لدمنهور ليعكف من جديد على الفارة والمنشار ولكنه لم يعد فى نظر الناس نجاراً . فقد مهنته للأبد .

واجتمعت لجنة الشعر بمجلس الفنون لتختار وفدها لمهرجان الشعر فى دمشق .. وقال العقاد كلاما كثيرا عن « الواد النجار بتاع دمنهور » كما كان يسميه واختاره ليلقى لأول مرة زجلا فى مهرجان الفصحى بدمشق وسافر الأطمس وارتدى بدلة جديدة لأول مرة ونام فى غرفة وثيرة بفندق سميراميس .. وأعانه لين الفراش على أن يكتب زجلا للوزير الأديب يوسف السباعى يقول فيه :

أنا لو شكيت اللى ما بى للحديد ليدوبْ
ولو حكيت للحجر حاتتخلق له قلوب
اللى أسيته وشفته يا عزيز عينى
لو شافه أيوب ودينى ما صبر أيوب !

* * *

عرف كلامى الإذاعة والصحافة كمان
« والأسطى » صبحت بقدرة قادر الفنان
هم اللى قالوا كده والله يا يوسف
أما أنا فى الحقيقة أقل من إنسان ..

* * *

المجلس اللى سبق تكريمه للنجار
واجب يراعيه خصوصا بعد ترك الكار
بلدنا فيها يا يوسف نجارين ياما ..
لكن قليل اللى يكتب فيهم الأشعار .

العقاد زجالا

أما عباس محمود العقاد رئيس لجنة الشعر الذى أفسح مكانا لزجال ولأول مرة يقول شعرا فى مهرجان شعر كله بالفصحى .. وأن يلتفت إلى أزجاله .. بل ويتبادل كتابة الزجل مع الشاعر النجار نزيل دمنهور .. فيكتب له العقاد بعض الأزجال .. كان ذلك بمناسبة عيد الميلاد السبعين للعقاد حيث احتفل به فى القاهرة فكتب له الأطمس يهنئه من دمنهور هذا الزجل :

الشمع اللى انقادْ أنواره بتزدادْ
وبتكتب فى قلوبنا عباس العقاد
وشموع الأفكار أنوارها فى خيال النجارْ
بيحاول إنه يصورها بتوه الأشعار
أستاذنا وسيدنا وتاج رأسنا
سلخ السبعين عامْ
إيه بس حانهدى مدرسنا
غير أحاسيس وكلام
من بحرك يا جميل غنيت المواويل
والنبع المحدود إيه يعمل للنيل ؟

* * *

مش عـارف ايه بس أقـولـك
متـحـيـر ويـاك
المعنى اللى الفكـر يـطولـه
بـيـرد ويخـشـاك

***

فى العيـد السبعـين يـا سيد العـارفـين
أرقيـك بالاحسـاس من عين الحاسدين

***

أدعيلك تفضل دوغرى يا للى ملكش شريك
لو حتى ياخد من عمرى يـا حبيبى ويديـك

***

البلدى بيغلب وأنا بلدى مهـما يكون الحـال
لو اخلف لأعلم ولدى إنـه يكـون زجـال

***

متحـير بـين حبى وما بين فرحة قلبى
ودى حاجة محتاجة لفصـاحة المتنبى .. !

ووصل الخطاب للعقاد وهو يطفئ شموع السبعين وأرسل تلغرافا يرد به ويقول فيه : « من نعمة السبعين أن تهنأ بأقوالكم وتطرب لأزجالكم والعاقبة لكم وعقبى لكم » .

« عباس محمود العقاد »

ومع التلغراف يصل خطاب تعيينه لمجلس الفنون .. وقلب جيوبه فخرجت غير بيضاء ومن غير نقود ..

وتطلع فلم يجد أحدا فى مقهى « المسيرى » سوى « عم عبده الجرسون » فاستلف منه « قرش صاغ » اشترى به طابع بريد وضعه على خطاب كتبه للعقاد قال فيه ، « أكتب لك بالقلم الرصاص لا دليل الحب والإخلاص كما يقولون وفى الحقيقة أكتب لك بالقلم الرصاص لأننى بعت القلم الحبر !

وقد أرسل لى مجلس الفنون لأتسلم الوظيفة ولا أملك ثمن تذكرة السفر وليس معى ميدالية أخرى لأبيعها .. فهل مشكلتى على تفاهتها تجد رغم مشاغلك حلا ! ؟ » .

مر يومان ليتسلم خطابا عاجلا كتبه له العقاد به حوالة بريدية بمبلغ جنيه واحد وكلمات أغلى من النقود :

« هذا المبلغ التافه أرجو أن يحل المشكلة حتى تحضر وإنى لأعجب أن يعيش فنان مثلك على هذا النحو ومشاغلى الكثيرة لا تحول بينى وبين كل من له موهبتك » .

ويرحل الفتى إلى القاهرة ويتسلم وظيفته بمجلس الفنون .

ولم ينس فى كل عام أن يكتب زجلا فى عيد ميلاد الرجل الذى سانده وأخذ بيده فيقول للعقاد فى عيد ميلاده الواحد والسبعين :

عباس ويا عباس ويا عباسنا

يا اسم غالى حبه مالى نفوسنا

فـايت عليـك يـالـلى بحبـك بـدرى
يـا كحل عينى يـا جميـل يـا بـدرى
جيت لك فى ليلة العيد أو فى بندرى
وأقـول يـا فـرحـة فـرقى مِلبسنـا

* * *

واحـد وسبعـين عـام سطور إليـاذة
مـروا عـلى العقـاد وقـالـوم هـذا
يـارب بـارك فى حيـاة متعـازة
ومن الحسـود ومن العيـون يحـرسنـا

* * *

ويرد عليه العقاد بزجل بنفس البحر فيقول :
« يا حامد » المحمود وحمدك واجب
عبَّـرت تعبـير الصـديق والصـاحب
والفن فـنـك والـزجـل يتعـاجب
واجب علينـا الشكـر فى مجلسنـا ..

وتتعاقب أعياد الميلاد وتتعاقب معها الأزجال حتى يكتب العقاد له آخر مرة معترفا به فى عيد ميلاده الأخير :

مالكش شريك فى أزجالك وأنت شـريك تهـانيهم
تعيش للفن عقبى لك وزودهم وزيـد فيـهم

(العقاد)

وقال رامى

أما شاعر الشباب أحمد رامى فقد كتب عن ديوانه الوحيد « صناع الربيع » يقول :

« يمتاز فى أزجاله بصدق التصوير وقد تناول فيها صورا شعبية ومواقف وطنية وعاطفية فأجاد .. فكانت أزجاله مرآة صادقة فى عكس نواح كثيرة من حياة هذا الشعب المناضل »

ورحل بيرم .. ورحل العقاد .. ورحلت أم كلثوم .

ورحل شاعر السواقى .. حامد الأطمس .

لقد حاول هذا الشاعر الذى امتصت شواغل لقمة العيش كل طاقته .. حاول أن يبتسم للحياة قدر طاقته ولكن ملامحه الجهمة دائما لم تتقن فن الابتسام .. فرحل فى منتصف الرحلة وصدقت كلماته عن نفسه :

دقيت لشراعى المرسى
وقفت فى نص الرحلة
ايه فاضل بعدها لسه
مش قلنا نودع أحلى !!

***

ولقد صدق وعده ورحل .. فى يوم حجب فيه الغيم وجه القمر يوم أم كلثوم ! .

العميد .. والأمير .. والصعلوك !

أما العميد فهو بغير منازع عميد الأدب العربى طه حسين .

وأما الأمير .. فهو بإجماع الوفود فى عام البيعة .. أمير الشعراء أحمد شوقى .

وأما الصعلوك .. فعلى قدر سوء حظّه فى دنياه .. يحظى فى أخراه بأن يردف اسمه بالعميد والأمير .. وهو شاعرنا نجيب سرور ..

وشتّان ما بين الألقاب .. وأنّى للصعلوك الفقير أن يلحق بركب العماليق .. ويدرج بقائمة المتوّجين ؟ .

ولكن الذكرى جامعة والمسافات محفوظة وكلمة الحب واجبة .

وأما المناسبة فهى اتفاق الموعد والميقات .

فقد رحلوا جميعًا فى شهر أكتوبر .. ما بين أوليات هذا القرن وأخرياته .

فقد رحل شوقى عام ١٩٣٢ وطه حسين عام ١٩٧٣ ونجيب سرور عام ١٩٧٨ .

وهى مسافة نصف قرن بين الأمير والصعلوك .. اختفت فيها

الإمارات والملكيات وهوت التيجان .

لتنتشر دولة الفقراء والصعاليك .

وانحسرت موجة الديباج والديباجة وبراعة التصوير والاستهلال ليصبح الشعر همس صاحبه ونجوى روحه ولغة الإنسان اليومية وخبز الفقراء وحلوى الأيتام من أبناء هذا العصر من الشعراء المصلوبين على عجلات الزمن الحديدية اللاهثين فى دروبها الفولاذية .. المتساقطين فى زحام الأبواق والسباق الرهيب .. زائغى الأبصار ما بين وهج الكلمة الحارة ورغوة الزبد الزائفة !

أصبح الشعر وهو على مرّ العصور مرآة بيئته وديوان جيله ..

أصبح فى حلقات نموّه وتطوّره من الجاهلية فحولة وثراء إلى فترات الزهو والازدهار العباسى والأموى .. وغنائيات الأندلس المترفة الموشّاة وعصر شوقى الخصيب الناعم ورفقته من الشعراء .

إلى أن صار فى مرايا العصر السحرية .. وجوهًا مختلفة السحن وحشيّة الملامح .. مكدودة القسمات مثقلة بكل هموم العصر . تحمل على كاهلها الرقيق عبء الشقاء اليومى وهمّ الشدو المتواصل .. وبطولة الجمع بين الحملين .

أما العميد .. فليس بشاعر ولكن فى أعماقه شاعر ..

ولو كان شاعرًا لنافس شوقى وسائر نجوم عصره وتحدّاهم كدأبه فى معارك التحدّى والتفوّق الأدبى .. ولكنه آثر أن يقف للشعراء خاصة بالمرصاد تاركا لهم حديقة الشعر .. مكتفيًا بدور

البستانى الذى يشذّب الغصون ويهذب فروع الشجيرات .. وإلاّ لكان النواسى الشهير الحسن بن هانئ ندا خطيرًا لشوقى أمير شعراء عصره :

لولا حيائى وبؤس حظى لكنت فى الشعر كابن هانى ..

ولقد طرق طه حسين أبواب الشعر كما طرقها كبار الأدباء كالعقاد والمازنى والرافعى وزكى مبارك وألقاه فى المحافل والندوات ونشره فى المجلات .. وكان أحد فرسان عام الشعر وهو عام « ١٩٠٩ » كما وصفه العقاد .

ولكن طه حسين تعلل بحياته وبؤس حظّه وأعلن أن شعره كان « سخفًا كبيرا » .

وانطلق طرّاقًا لأبواب أخرى فتحت له الطريق إلى الشهرة وبلوغ الهدف ، وخلع جلباب الشاعر .. ولكنه لم يلق بريشته وإنما رسم بها وعزف على أوتارها ذلك العزف الشجى العميق الألوان الذى ميّز أسلوبه بتلك المشاعر المرهفة .. الموسيقى العميقة النفاذ إلى القلوب والأسماع أعمق ممّا ينفذ الشعر إلى القلوب والأعماق ..

واجدًا فى نفسه كما قال : « أطرافًا من هذا الخليط من الشعر والنثر ولكنه لم يقف عند شيء من ذلك » .

فكان طالب معرفة وجوّاب آفاق من كل فنّ ولون وكأنه

استوعب قول صاحبه أبى العلاء :

ما مرّ فى هذه الدنيا بنو زمن   إلاّ وعندى من أنبائهم طرفُ

وإذا كانت جذوة الشاعر لم تتوهج فى أعماق طه حسين فقد أفاد كثيراً من غيابها وبقاء وهجها الرمادى مشتعلاً تحت الركام ..

فقد قايض هذه الموهبة القديمة – موهبة الشاعر – بجذوة الناقد الموهوب للشعر والتى أشعل رمادها وألهب مسرى النار فيها لطول ما قدح زناد الشعر والشعراء فكان أقرب الناس إلى روح الشعر وخوافيه ومراميه .

شاهدُ ذلك .. ما أبدعه وكتبه فى « حديث الأربعاء » خاصة وحديث « الشعر والنثر » ومع المتنبى وأبى العلاء ، جولاته فى حدائق الشعر الأوربى . ودراساته الأخرى دون أن يفلت حبل الشعر من يديه .. بل ويغلبه الحنين إليه فى بعض المواقف « فيغنيه لنفسه » كما قال .. ويتمثل به أجمل ما يكون التمثيل حتى ليجيء الاستشهاد بالبيت وكأنه إضافة لازمة تثرى المعنى وتضيف شحنة وجدانية للكلمة وللقارئ معًا ..

وإذا تتبّعنا سائر كتابات طه حسين النثرية .. لوجدنا ظاهرة التمثل بأبيات الشعر واضحة .. ولوجدنا أسلوبها شعريا فى نثره حيث يغلب الإيقاع والنبر وإشاعة الموسيقى الداخلية فى أعطاف الجمل النثرية ، ولطالعنا ذلك خاصة فى سيرته الذاتية « الأيام »

ورائعته « أديب » وأعماله الروائية مثل « دعاء الكروان ونفوس للبيع .. » .

بل نجد مقاطع بأكملها من الشعر ساقها سياق النثر سليمة الوزن مستوية البحور كما فى فصل بعنوان « ذو الجناحين » فى الجزء الثالث من كتابه « هامش السيرة » وفى بعض فصول « جنة الحيوان » وكأنه أرسلها عفوًا ودون عمد أو تكلف .. وهو يعلم علم اليقين أنه لا ينقصها إلّا لزوم القافية لتصير قصيدة مستقلة :

لاتعرف الكف وزنى بل غدت أذنى وزانة ولبعض القول ميزانُ

ولقد ظلّت جذوة الشعر تتوهّج فى أعماق طه حسين وتنير له البصر والبصيرة قارئًا للشعر العربى مفتونًا به راضيًا بفقد ذلك الكنز الأثير مقابل الإنفاق من خزائنه وتداول عملته الذهبية فى أغلب ما كتب وخاض من معارك .

فكان عنيفًا كل العنف حين تصدّى للشعراء من كل صوب ولون .. وكان كتابه « الشعر الجاهلى » أوّل السهام النارية التى أطلقها على الشعر والشعراء ..

وكأنما يبغى فى باطنه الثأر لمقتل الشاعر القديم فيه .. فأعمل سيفه المسنون فى الشعراء القدامى والمحدثين .. فهاجم شوقى واتهمه بأنه « مقلد » ورأى فى حافظ إبراهيم « ظرف الحكمة » وفضّل عليهما خليل مطران .. وآثر العقاد على الجميع وبايعه بإمارة

الشعر نكاية فى شوقى والرافعى ..

وشدّد الحملة على شاعرية إبراهيم ناجى وأبى الوفا وإيليا أبو ماضى الذى اتهم شعره « بالرطانة الأعجمية والضعف » .

مؤثراً عليهما صاحب الملاح التائه على محمود طه .. كما أخذ المتنبىّ من قبل أخذًا شديدًا وهو شاعر العربية الأكبر ولكنه عنده « شاعر كغيره من الشعراء أنزل نفسه فوق قدرها وظنّ نفسه حرًّا ولم يكن إلاّ عبدًا للمال وذليلاً للسلطان » .

وأراد طه حسين بتشدّده هذا أن يشعل حماس الشعراء ليعطوا أبدع ما عندهم وحتى لا يبدّدوا الوقت والطاقة فى الكسل وطلب الوصول والشهرة مطبّقًا على الشعراء مذهب « ديكارت » فى الشكّ ونظرية « سانت بيف » فى النقد ..

ولم يغفر للشعراء ضحالة الثقافة والتراخى فى التحصيل والمكابدة وطبّق عليهم ما طبقه أفلاطون من قبل .. فأباح لهم دخول المدينة الفاضلة بأجنحة الإبداع والجمال والمعرفة والحق .

وظلّت صلة طه حسين بالشعر والشعراء صلة معقودة الأواصر ينأى عنهم ثم يعود كالعاشق القديم .

وكأن الشعر هو حديقته الغناء التى يفىء إلى ظلالها كلما اشتدّ به الهجير وكأنه صاحبه ورفيق غربته .. فلا ينسى فى رحلاته إلى ربوع أوربا أن يصحب معه شاعرًا حبيبًا إلى نفسه .. أو لدودًا له .

فيؤثر صحبة المتنبّى فى رحلته إلى جبال الألب ويؤلّف عنه كتابًا بدلاً

من أن يمرح فى ظلّ الجبال العالية ويسترخى على شاطئ البحيرات .

ولو جارى هواه لصحب معه شاعرًا من أحبائه الخلصاء أمثال الفرزدق والحطيئة والطرماح وأبى نواس وأبى تمام وطرفة والمنخل .

ولكنه يصحب المتنبى على كره منه وإعجاب خفىّ ..

وبقدر ما ألهب طه حسين بسوطه ظهور الشعراء بقدر ما طالبهم بإعطاء أغلى ما لديهم من كنوز ، والحرص على جوهرة الشعر المتوهجة فى الأعماق . ولكنه يعود فى أواخر أيامه بعد أن انقشع غبار المعارك وهدأ صراع الأحياء فيعلن حزنه وأسفه على قسوته على شوقى وحافظ ومجادلة الشعراء أشدّ الجدال .. مبرراً ذلك بأنه كان :

« يؤدّى للمثل الفنّى الأعلى حقّه ولا نكتفى من شعرائنا بما كانوا يكتفون به ولا نرضى لهم أن يفسد عليهم أمرهم العجب ويحملهم على التقصير أو القصور » .

ويعود فيقول بعد أن تفرق القرناء وكرّ عليهم الليل والنهار ليقول كلمة اعتراف وحق فيعلن أخيرًا :

« إن شوقى أكبر شعراء العربية بعد المتنبىّ ! »

ذلك .. وجه الشاعر – فى طه حسين .. فشاعريته نابعة أساسًا من عقدة التحدّى والكبرياء غذتها سليقة التصوّر وملكة ترقيص الكلمات والترنّم بها قبل الإملاء ..

فهو يرفض الظلام ويقهره مولعًا باختراق الحجب المظلمة وتصويرها على الورق .. وكأنه « رينان » عصره الضرير الذى يرسم الكلمات ..

وكانت عين الشاعر المبصرة فيه هى نافذته الوحيدة التى حدّق من خلالها فى الحياة والأحياء كأنها المصباح السرّى الذى أضاء له العتمات وعصمه من العثرات .

وكان وجه الشاعر أحبّ الوجوه وأقربها إلى قلبه ، وظلّ الشعر لحنه المفضل كلما جاشت نفسه بالغناء .

وكان منهجه واضحاً بسيطًا .. وهو الإيمان العميق بحرية الفكر والفن والدعوة إلى التجديد ومطالبة أصحاب الجديد وأنصاره بالمحافظة على عبقرية الفن الشعرى والتزام الضبط اللغوى وصدق التعبير والمعاناة .

ولا أجد دليلاً أسوقه على حبّ طه حسين للشعر والشعراء من كلماته الباقية وكأنه يرسى بها شعاراً أو وسامًا يجب أن يعلق فوق صدور الشعراء حيث يقول :

« أتعرف هؤلاء الشعراء الذين يستمتعون بالحرية فيتغنون ؟
ويزجّون فى أعماق السجون فيغنون . !
ويضطرون إلى البؤس والجوع فيتغنون ؟
هؤلاء شعراء وأدباء حقا ..

لأن أخص ما يمتاز به الشاعر أو الأديب هو أن جذوته مضطرمة

دائمًا وضميره حيّ أبدًا وقلبه مرآة لكل شيء » .

* * *

أما الأمير .. فهو شوقى الذى شغل الدنيا والناس كما شغلهما المتنبى من قبل .

فقد أغلقت مغاليق عبقر .. على مروج الشعر منذ المتنبى فلم تنفتح إلاّ لتزفّ عرائسها إلى شوقى ..

ولم يزعم شوقى لنفسه أكثر مما لديه .. بل فرح بما أوتى واغتنم . وبما أغدقه الله عليه من عطايا ومنن .. فاعتصم بالشعر عن سائر أمور الدنيا ..

ومرّت السنون وفات أكثر من مائة عام على ميلاد شوقى ولغط به وفيه اللاغطون كثيرا .. ما بين ناقد وحاقد ، وقادح ومادح وشوقى عن ذلك كله لاهٍ ناعم فى رقدته .. كما كان لاهيًا ناعمًا فى كرمته ..

لا يلفته من ذلك شيء إلاّ أنه حفر اسمه بماء الذهب وترك بصمته فوق وجه الدنيا ونام ملء عيونه وسهر الخلق فيه واختصموا .. !

ولم يكن نجم شوقى ليعلو ويتألق على سائر شعراء عصره وسابقيه إلاّ ولديه من أسباب التفوّق والفيض ما يؤهله لذلك ...

فهو شاعر عظيم الفيض شديد الطموح خصب العطاء .. عرف موقع قدميه منذ البداية .. استوثق من كون الشعر فى طباعه وأنه

حلية له على سائر الأمور فانكبّ على فنّه الشعرى يغذّيه ويرويه .. فبطوف بالخارج ويرتشف من رحيق العربية كما يرتشف من رحيق الآداب الغربية .. ويلقى بشباكه فتعود له بالصيد الوافر .. فى الشعر والنثر والمسرح .

يعينه على ذلك ليان العيش وترف الإقامة .. حتى حين ينفى إلى الأندلس كأنه ذاهب فى نزهة خريفية إلى أجمل الربوع فلم يخض حربًا ولا معتركا مثل المتنبى وأبو تمام مع سيف الدولة والمعتصم .. وكما خاض البارودى الذى نفى « لسرنديب » حتى فقد بصره ..

فجاءت أشعاره كأنها النهر المتدفق السكوب .. ومرّت حياته كأنها « حلم بغير إزعاج » .

وتدفقت معانيه كأنها وحى يأخذ بتلابيبه أخذًا .. فهو حين يتلقى الوحى « يغمغم غمغمة تشبه النغم الصادر من غور بعيد ثم ترى ناظريه وقد برقا وتواترت فيهما حركة المحجرين ويد تمر على الجبين إمرارًا خفيفاً .. » .

ولقد عالج شوقى كل فنون الشعر .. عارض أمهات القصائد وطاول الفحول .. وتفوّق على نفسه وعرف قدرها وأشاد بها ولكن على استحياء بعكس المتنبى الذى كان متعاليًا جسورًا عالمًا بأسرار موهبته حتى لكم بالحديد وكاد له حاسدوه وزجّ به فى أعماق السجن .

لأنه كان يقول :

لا بقومى شرفت بل شرفوا بى وبنفسى فخرت لا بجدودى ...
أن أكن معجباً فعجب عجيب لم يجد فوق نفسه من مزيد » !

ولأنه كان أكثر جسارة وتعاليًا حين قال :

أنا ترب الندى وربّ القوافى وسهام العدا وغيظ الحسود

أما شوقى .. فكان أذكى قريحة وأدنى غرورًا وأرقّ جانبًا وحياءً .. يغالى بقيمته ويتيه بشاعريته ولكن فى تواضع واعتراف بالجميل لكل من قدم له جميلاً :

لست أنسى يدًا لإخوان صدق
منحونى جزاء مالم أعانه
رب سامى البيان نبّه شأنى
أنا أسمو إلى نباهة شأنه
كان بالسبق والميادين أولى
لو جرى الحظ فى سواء عنانه
إنما أظهروا يد الله عندى
وأذاعوا الجميل من إحسانه
وهبوا فى الحمام لذة سجع
أين فضل الحمام فى تحنانه

وتـــرّ مـــا فى اللهـــاة مـــاللمغنى

من يـــدٍ فى صفـــائـــهِ وليـــانـــه

هذه الومضات الصافية من شوقى .. جذبت إليه قلوب معاصريه .. وهذا التواضع الذكى .. أضاف إلى رصيده الشعرى المزيد .. وتحقق فيه سلوك الشاعر المحمود وإبداعه المشهود له .

حتى ليتوجه الشعراء فيعلن مطران أنه « أرقّ الشعراء طبعًا وأسماهم خيالاً » ويهتف حافظ بأنه « فتىً ماله فى السبق إلّاه » .

* * *

ولقد هوجم شوقى من نقاد عصره كما لم يهاجم شاعر مثله حيًّا .. وفتحوا عليه النار من كل جانب . فأهدر العقاد شاعريته واتهمه طه حسين بالالتواء والتقليد .. وأنكره المازنى شاعرًا أو شبه شاعر !

وانهال عليه الرافعى وكال له .. وتنكّر له صديقه الدكتور هيكل واتهمه بتهم قاسية .

ولكن شوقى لم يعبأ بذلك ومضى فى مسيرته الشعرية لاهيًا قريرًا هاتفًا فى وجه الجميع بأنه : « مجد تكون ومن المستحيل هدمه » !

ويتربع شوقى على عرش الشعر بعد مبايعته بالإمارة خمس سنوات حتى يرحل عام ١٩٣٢ .

وتمر الأيام .. وتتابع أجيال الشعراء .. ويصبح لشوقى وشعره

مذاق آخر كأنه تعتق فى دنان الزمان .

ويتراجع ناقدوه ويتوجونه غائبًا بعد أن نام عن شواردها .. وينفضون الغبار عن « كرمته » لتصير متحفًا وأمسية ..

ولم يغير النقاد رأيهم فى شوقى عن سوء منقلب فى الرأى فهم فوق المظنة والغرض .. ولكن بدايات عصرهم الأدبى .. كانت تيارًا جديدًا يتدفق فى أوصال الأدب والشعر .. تختلف أسبابه من واحد إلى آخر خلاف فى الرأى ومذاهب الفكر أو منازعة على اللقب والإمارة أو اصطياد شهرة من الهجوم عليه ..

وفى نفس الوقت كان شوقى قد قطع الشوط للنهاية ولان له قياد القول ونضجت موهبته ورسخت قدمه مما أتاح لناقديه أن يطوّروا رأيهم فيه فى ضوء ماأسفرت عنه حلبة السباق بعد أن قطعت الجياد الشوط إلى نهايته وصار فرسان السباق ملكًا خاصًا للتاريخ وأصبحوا فى منأى عن أهواء الأحياء ..

فيعتبره العقاد « إمام مدرسة » ويصفه طه حسين بأنه « خلق ليكون مجددًا » .

ويقول المازنى : « كان عنوانًا ورمزًا لمصر وللشرق العربى كله » .

وتعددت فيه الأقوال ..

ولكن يظلّ شوقى .. وقد أوشك على رحيله نصف قرن .. أمير

الشعراء بغير منازع .. ولو فطن لقول المتنبى لسبقه إليه .. حين قال :

أمِـط عنـك تشبيهى بمـا وكـأنـه
فمـا أحد فوقى ولا أحـد مثلِى !

وأما صديقنا الصعلوك .. ختام قائمة الذكرى .. فهو واحد من فرسان العصر الذين عاشوا وماتوا بحثًا عن بطولة ..

وهو أحد الأحياء الغرباء الذين مشوا فى جنازتهم على الأقدام وشيعوا أنفسهم وهم أحياء .

فقد أطلق نجيب سرور .. رصاصة النهاية على مرأى من رفاق عصره دون أن يتقدم أحد لانتزاعها من ضلوعه .

وآثر أن يسلم نفسه طائعًا مختارًا لقاتليه : « العلّة والضياع » .. ومهّد لها الطريق راضيًا قريرًا واقفًا فى مهبّ الريح عارى الجسد غريب الوجه واللسان حتى اقتلعته العاصفة القادمة من غابات الصقيع فتهاوى مثل شجرة نخرها السوس !

كان نجيب سرور يحمل أكثر من وجه .. لذلك كانت معاناته أثقل وكان الثمن المدفوع فادحًا .

كان يحمل قلب شاعر وبراءة طفل يبحث عن شىء لا يجده دائمًا كان مخرجًا ومؤلفًا مسرحيًا وممثلا وزجالاً وكاتبًا وشاعرًا ..

ولكن وجه الشاعر فيه هو أقرب الوجوه وأكثرها انتفاضًا وثورة وتألقًا .

كان شاعرًا يعتلى خشبة المسرح بدلا من القافية ويتقمّص القصيدة .. ويحوّل القافية فى يديه إلى خشبة مسرح ويتفوّق فيه الممثل أحيانًا .. فكتب القصيدة بلغة مسرحية وأكثر فيها من الحوار والمنولوجات والكلمات المأثورة بل لم يتورع أن يطعمها ويرصعها ببعض النكات والنوادر الشائعة . والأمثال الجارية .. أو .. يمزجها بسطور من العامية ، فأباح لنفسه أن يكون « مخرجًا » لقصيدته وممثلا لها .. بدلاً من أن يكون شاعرها فقط !

« وشغفت بالتمثيل لم أعشق من الأدوار .
إلّا دور « هملت » .
ياسيداتى كنت فلاح الملامح ..
لا تلائم سحنتى دور الأمير !.
لكن تلائم دور « حفار القبور » !

فهو لايعبأ كشاعر .. بالقصيدة بقدر ولعه بشكلها المسرحى .. حالمًا دائمًا بحلم الشعراء الذهبى .. أن يعزف بشكل آخر .. متمنيًا أن يكون له جناح « فرجيل » أو قيثارة « دانتى » أو فارس الفرسان بايرون ، أو حكمة « أبى العلاء » أولئك الذين آثر صحبتهم من الشعراء .. ونهل من مناهلهم وتطلع إلى إبداع شكل من أشكال القول يتفرّد به ويتميز ولكن كيف ويداه قصيرتان .

أجود باللهيب لحظة وأنطفئ .
وأنة من البحار موجة على السفوح .
تقوم فى غرورها وتنكفئ !

ولأن نجيب سرور يحمل الشارتين معًا .. الشاعر والمخرج فهو لا ينسى الجزئيات الصغيرة فى أشعاره والتفاصيل المسرحية حتى ليوقعه ذلك فى الإطناب والسرد والنزول بالومضات الشعرية المضيئة فى غير منزلها .

ولم يكن ذلك غائبًا عن موهبته وفطنة الشاعر فيه ولكنه كان غارقًا حتى أذنيه فى قاع طاقاته طافيًا فوق موجات حلمه البعيد ..

لاهيًا عن موهبته الحقيقية الشاعرة .. بحثًا عن دور جديد لم يلعبه من قبل فجرفته اللعبة إلى تمثيل دور لم يلعبه شاعر ولامخرج قبله .

وأخيرًا سقط نجيب سرور .. منذ عامين .. ولم تذرف عليه دمعة .. وطالما ذرفت عليه الدموع وأنا أراه فى سنواته الأخيرة يحمل جثته على كتفيه ويحفر قبره بيديه .. وينعكس على وجهه ذلك الشعاع الباهت المجهول .. الذى ينذر بالعاصفة القادمة .. ويشى بالنهاية ..

يامصر ياوطنى الحبيب .
ياعش عصفور رمته الريح فى عش غريب
يا مرفئى أنت ولو فى جسمى المهزول آلاف الجروح .

وكما ذهبت مع الرياح يوما أعود مع الرياح !

ولم يبق من فصول الرواية إلّا الفصل الأخير .

وأسدل الستار .. وحمل الفتى النازح عن أحضان أمه .. قدميه المتورمتين .. وكبده المقروحة .. وجسده الواهى .. ليستريح فى ظلّ سنابلها ناثرًا فى دروبها وحقولها .. باقة أزهار ذابلة هى حصاد السنين وهى هدية العودة هاتفًا هتفته الأخيرة يخاطب قرينته معترفًا لها باعترافه الأخير :

أنا لست أُحسب بين فرسان الزمان

إن عُد فرسان الزمان

لكن قلبى كان دومًا قلب فارس

كره المنافق والجبان

مقدار ما عشق الحقيقة

« أخطاب » قرينتى الحبيبة

هو لم يمت بطلا ..

ولكن مات كالفرسان بحثًا عن بطولة !

سيد درويش
ولحن لم يعزف !

فى ١٧ مارس من كل عام يقولون ولد فى الربيع .. وفى ١٥ سبتمبر من كل عام يقولون مات فى الخريف ، وتتعاقب الفصول ما بين الربيع والخريف وتصبح الذكرى تقليدًا موسميًّا واستهلاكًا للمناسبة وينفض السامر إلى عام آخر .

وتمرّ السنون .. وتتوالد أجيال وأجيال تسمع عن سيد درويش أكثر مما تسمع له .. وتقرأ الكلمات عن عبقريته دون أن تضع يدها على ملامح هذه العبقرية أو تعانق روح صاحبها .

وتتكاثر الدعاوى ما بين كهربة الأوتار وطنين النحاسيات ورفع لافتات الزعامة وحجب سبق الريادة الحقيقية لسيد درويش .. ويمتصّ شباب الجيل وصباياه وأطفاله هذه القشور تحت شعار التجديد .. وينخدع باللافتات تحت ثقل التكرار .. فيشبّ ضامر الروح وتضعف بنيته الفنيّة لسوء ما يتعاطى من غذاء . بدلاً من أن يمتص الرحيق الأصيل الذى اعتصره سيد درويش من ينبوع فنّه الخفى ومزجه بتراب وطنه وسنابل حقوله حين ارتفع صوته لأوّل

مرة يغنى لمصر والثورة والنيل والعمال والفلاحين والاشتراكية والحب والمرأة والحياة والإنسان .

لقد كتب عن سيد درويش كما لم يكتب عن فنان مصرى من قبل . ألوف المقالات والتحقيقات عن حياته وغرامياته وسهراته ونزواته والحىّ الذى عاش فيه والحانات التى كان يغشاها .. ورحلته للشام والقاهرة ومئات من الكتب والمصنفات والأشعار واللوحات والصور .. بل أرخ مؤرخوه ومعاصروه فقالوا : إنه أحد ثلاثة فجروا شرارة ثورة ١٩١٩ هو ومختار ولطفى السيد .. وأضافوا: أنه لم يتعمد التجديد قهرًا ولكن التجديد عنده كان شيئًا لا حيلة له فيه ، بل كان شيئًا يتدفق من ذات نفسه كما يتدفق السيل الهابط من القمم « توفيق الحكيم » وأنه على رأس طائفة وطليعة مدرسة :

« رأس طائفة لم يتقدمها متقدم وطليعة مدرسة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الموسيقى المصرية ولا أستثنى أحدا ممن اتصل بنا نبؤهم فى العصر الحديث » (العقاد) .

« وإن ما نسمعه اليوم من الموسيقى هو أثر من آثار سيد درويش فى التجديد » (د . حسين فوزى) .

لقد قتل سيد درويش كلامًا وبحثًا .. وفى نفس الوقت وئدت موسيقاه فى بئر النسيان فلا يرفع عنها الغطاء إلّا عند ذكراه .. وتنطوى الذكرى وتنطوى معها الألحان .. لا تتردد على الأفواه .. ولا تُلحّ على الأسماع كما يلحّ غيرها من موسيقى وألحان .

عندما خلّدوا « بتهوفن » نقلوا رفاته مرتين .. وأغلقوا على تابوته ثلاثة أقفال من الذهب الخالص . وأقاموا فوق مقبرته مسلّة من المرمر تحمل اسمه .. ونقشوا سيمفونياته فوق بوابات بون وفيينا .. وفى أعماق الناس .. وفى ذكراه تتحول فيينا إلى مهرجان من النغم والورود .

وفى سالزبورج .. يحجّ الناس من كل فجّ إلى دار « موتسارت » العظيم ويطوفون بها قبل أن يطوفوا بأى أثر مّن آثار المدينة الخالدة ، وفى ذكراه يقام عيد قومى على مدى أسبوع يحضره ممثلون من دول العالم .

وفى الإسكندرية .. تنزوى مقبرة سيد درويش الرخامية الباردة فى صمت بلا باقة ورد ولا قلادة .. تقبع بجوار آلاف المقابر الأخرى فى مدافن المنارة قريبًا من حدائق الشلالات على مسافة عبور شارع واحد من الربوة العالية كوم الدكة حيث عاش ومات !

وفى أحد أزقة هذا الحىّ تقبع دار مقفرة تمرح فيها الجنادب والعناكب والجرذان لم تشيد حولها أعمدة رخامية .. ولم تمتد أمامها حديقة .. ولم تتفجّر فى باحتها نافورة أو فسقية .. لم تتحول إلى متحف يضمّ عوده وريشته وعصاه وجهاز أسطواناته « وبوبيونه » وخاتمه الماسى وجبّته وعمامته وقفطانه .. وبدلته وخطاباته ومقالاته فى الموسيقى .. ونسخ المسرحيات التى لحنها .. والمؤلفات التى كتبت

فيه وعنه واللوحات والصور التى رسمت له .. والأشعار التى غنيت فيه .

لم تدرس ألحانه وموسيقاه .. ولم يتح لها أن تجمع بشكل متكامل ، ومازالت مبعثرة .. لم تطبع أغنياته فى أسطوانات شعبية يسمعها الأولاد فى المدارس والعمال فى المصانع .. والفلاحون فى الحقول ، لم تذع أوبريتاته ومسرحياته على النطاق الجماهيرى .. لم تخصص باسمه الجوائز ولم ينل جائزة .. لم يظفر بلقب فنان الشعب وكان بلا جدال .

اثنتان وعشرون مسرحية ومائتا لحن وسبعة عشر موشحا وخمسون طقطوقة وعشرة أدوار للتخت هى حصاد عمر قصير عاشه صاحبه بنهم وماته بنهم وبين الاثنين مسافة أقل من اثنين وثلاثين عاما .

* * *

كان سيد درويش من أولئك النفر الذين كتب عليهم الاحتراق والعطاء والفيضان المحموم .. الاحتراق لأنه لا يملك فكاكًا من البركان المتأجج داخله .. والعطاء لأنه لا يقدر إلّا أن يهب .. ويمنح .. ويسخو .. كان جسورًا مقدامًا طليقًا فشدّ القوسين معًا .. قوس الموسيقى حين أطلق نغمًا سحريًّا نشر العبق والأرج فى السماء والأرض .. وقوس الحياة حين قذف بنفسه فى أتونها وأسرف فى تعاطيها علّه يكسر حدّة البُركان داخله فملأ رئتيه من هوائها ونفثه

حروفًا سيمفونية قصيرة غمرت وجه الدنيا .

كان فى داخله تلك الشعلة المقدسة التى يرى فى نورها من أسرار الفن أكثر مما يرى غيره .. فانطلق على سجيته وهواه شامخًا كالجبل .. جارفًا كالسيل عنيدًا كالكبرياء .. مشرقًا كالأمل .. دافئًا كالحب .. فياضًا كالحياة .. لم يُحْنِ رأسه لشىء ولا لأحد .. فنفذ إلى القلوب والأسماع .. وتسرب إلى القرى والنجوع .. وردّد ألحانه البسطاء فى كل مكان .

كان يجلس فوق بركان يعرف أن انفجاره يعنى أن يتطاير أشلاء فى الفضاء .. ولكنه كفنان أصيل لم يفرط فى الشعلة المقدسة أبدًا .. لم يهرب من فوق فوهة البركان .. استطاع أن يتربع فوقه ويحبس انفجاره حتى يصل الغليان لذروته فيطير معه شعاعًا .. ويحوله إلى أنغام وتصاوير ، فغنّى للرمق الأخير .. ومات وعلى عوده لحن أعدّه لعودة سعد زغلول من المنفى .

* * *

وما بين الربيع والخريف تطلّ روح سيد درويش مع كل ذكرى تغلفها مسحة من كآبة النابغين وكأنها تتساءل عن موسيقاه بينما تتسلق أذناه أرجاء الفضاء العريض علّها تسمع اللحن الذى لم يعزف له بعد :

لحن الخلود ..

« زوربا » الإسكندرانى !

على غير موعد ومض النجم فى سماء الموسيقى ..
رجموه بالطوب علّه يدفن حيًّا ..

وكان النجم عاليًا فلم يصب الطوب حتى المئذنة . وارتدّ إلى الواقفين فوق الأرض فطاشت منهم الألحان .. ما بين أبواق وأرزاق ورنين وطنين وزعيق ونهيق وكهربات وشهقات وتأوهات تحت اسم التجديد وبجسارة الريادة . وبشهوة الاستماتة على الضوء .. وبقوّة الإلحاح ، ومن كل النوافذ - على الآذان .

حتى لغط بها الناس .. وخدع بها العامة ، وفُتن بها البنات والبنون .. وامتصوا القشور والزخرف بدلاً من أن يتغذّوا بالرحيق الأصيل ..

أبدع كل ما أبدع وهو فى عمر ناشئة اليوم من أدعياء التجديد والإبداع .. وظل النجم عاليًا وضيئًا تمر عليه الأعوام فيزداد تألقًا .

وصار النجم كهلاً .. وركب مركبة عيده الذهبى ليطل على الناس فى حياء وشموخ ويقول لهم . وهو قاب عيدين ، عيد ميلاده

الماسى (٨١ عامًا) وعيد وفاته الذهبى (٥٠ عامًا) : ليس بالضوء وحده يحيا الفنان .

مهما تراكم التراب فلن يطمس نضارة الذهب .

لا يمكث فى الأرض إلا ما ينفع الناس ويمجد اسم الوطن .

أما الزبد فيذهب جفاء ..

لذلك عاش هو ..

وماتوا هم أحياء .

* * *

لو سألت طفلًا فى مدارس بون أو لندن أو باريس عن السيمفونية التاسعة .. لقال لك « بتهوفن » وبلا إبطاء ..

ولو سألته عن أنشودة الفرح فيها لقال لك :

إنها للشاعر فردريك شيلر .. وبلا تلعثم .

لو سألت رجلًا كبيرًا من هنا .. عن « العشرة الطيبة أو شهر زاد » لتعثر فى ذكر اسم صاحبها . وربما ذكر لك اسم أحد الملحنين الناشئين ، أو على الأكثر إحدى المطربات .

لسنا نعقد مقارنة بين هذا أو ذاك .. فبتهوفن على حدّ قول « فاجنر » ، « سيعجز البشر حتى يوم القيامة عن أن يصنعوا ما صنعه » .

ولكننى أريد القول بأن عاشق الموسيقى الذى يولع بملك السيمفونيات بتهوفن أو يعشق فاجنر ملك الأوبرات ، أو شوبرت

ملك الأغانى ، أو شوبان شاعر الألحان ، يستطيع أن يتذوّق موسيقى سيد درويش ..

أن يكتشف أن هذا الرجل يجرى فى عروقه دم العباقرة والمجددين الذين أضافوا شيئًا للبشرية ، وأنه ينتمى إلى نفس القائمة من العمالقة مهما تفاوتت درجات المقارنة وسموّ المكانة تستطيع وأنت تستمع إلى موسيقاه أن تقول بفخر وإكبار :

هذه الموسيقى تنفذ إلى قلوبنا لأن بها حفنة من تراب مصر .. وجرعة من نيل مصر .. وحكايات وبطولات عن شعب مصر .

نغنيها فى الغربة حين نفتقد الحنين للوطن .

ونغنيها فى الثورة حين نفتقد طلقة الرصاص .

ونغنيها فى الحقل والمصنع والمدرسة حين نستقبل نضال الصباح ..

ونهدهد بها خلوة الليل والمحبة حين تغمرنا رجفة الشوق .

هذا كله صنعه هذا الرجل لمصر لأنه :

عرف الأغانى واللحون كما جرتْ فى عُرْف من نطقوا فعبّروا

إن المغنّى إن علا استقلالكم بين البناء مؤسس ومعمر

تلك الربوة العالية كوم الدكة

هناك فى مدخل الثغر غير بعيد عن شاطئ الأزرق .

أى سرّ يكمن فيها ؟

عشر سنوات عشتها هناك .. كانت هى المكان الأثير الذى ألوذ به بعيدًا عن صخب الحياة .

فى الضحى كانت قهوة الصباح فى مقاهيها ذات طعم خاص .

فى الظهيرة كانت نسمة القيظ تهبّ حانية رخيّة اللمسات كموجة البحر .

فى المغيب كان لقرص الشمس وهو ينحدر عنها نبضة شجن من نوع خاص .

فى الليل كان دفء الشتاء أو نداوة الصيف فيها .. تملأ القلب بالحياة والأمل والحب .

سرٌّ ما يشدّك إليها ولا يجعلك تملّ الطواف والتجوال .

ما من مرة أجوس عبر دروبها إلاّ ولفنى شعور دفين كأنه وشيجة قربى تربطنى بهذا الحى العريق .

ما من مرة أجوس دروبها إلاّ وأطبقت الأهداب على وجهه الحبيب يطل من فوق سحابة لا تنسكب .. مهيبًا بسيطًا ، عريض الجبين ، مؤتلق الجبهة ، ثائر النبضات .. أسمر البشرة قوى التركيب .. مشبوب الروح .. وسيم القسمات جيّاش الضحكة خصب الانطلاقة .. تعلو قامته سقف الحى وقد تطاير شعره الأشعث الغزير فى الهواء الطلق .. ورق « البوبيون » فى عنقه كأنه وسام .. وفى يده عصاه السحرية يلهب بها ظهور الجياد كأنه

« زيوس » يهبط من سماء « الأوليمب » ليجوس فى مملكة الليل والنهار ويبعث فى أوصالها لحن الخلود .

طالما تخيّلته وأنا أجوس خلال ربوع هذه الربوة العالية .. وصوته ينحدر من وراء كل حجر وحصاة ومن خلف كل منعطف أو زاوية يغنى أغنية لكادح أو ساهر أو عاشق أو مغترب أو ثائر .. أو مقاتل فى ميدان .. وكأنها جميعًا الحارات والأزقة والجدران وعتبات البيوت ومودات الجيران .. وحنايا الدروب تعزف بدورها لحنًا جماعيًّا للطفل الذى حبا فوق درجها .. والفتى الذى شبّ فى أركانها .. والابن البار الذى مات فى رحابها ..

تعزف لحنها الأثير .. بحروفه العذبة الرنين الغريبة الإيقاع .

سيد درويش .. البحر

من يكون ؟ وماذا يعرف عن الموسيقى ؟ ولماذا تنفذ ألحانه إلى الأعماق كأنها الشعاع يخترق النوافذ المغلقة ؟

لماذا يتغنى الفقراء والفلاحون والعمال بموسيقاه ؟

هل درسها فى عواصم بلادها وأمهات معاهدها ؟ هل طاف بربوع فيينا وسالزبورج وباريس .

هل خرج أبعد من حدود كوم الدكة بالإسكندرية وجزيرة بدران والأزبكية بالقاهرة وبساتين الشام عبر البحر .

لا أكثر من ذلك .

ولا أكثر مما أحس به وعبر عنه فى كتابات مبكرة فى ٩ سبتمبر عام ١٩٢١ بمجلة النيل بتوقيع « خادم الموسيقى » فماذا قال :

« هى جسم الحشاشة له روح من النفس وعقل من القلب وهى محك القلوب يعرف بها الحساس فيؤخذ عند سماعها ويبغضها الجبان فلا يلوى عليها » .

« يأتى المولود فتستقبله القابلة والأقارب بأغانى الفرح والحبور يجيبهم عندما يرى النور بالبكاء والعويل فيحيونه بالهتاف والتهليل كأنهم يسابقون بالموسيقى الزمان على إفهامه الحكم الإلهية » .

تُسكت الطفل إن بكى ..... وتُداوِى

كل مُضْنى مُشتت الأفكارِ

وأخيرا هى التى :

تدفع الجيش للقتال ببأسٍ

هو أقوى من الأسودِ الضوارى

« ذلك لأنك لا تجد جيشًا إلاّ ومن أوائل مطاليب رؤسائه إتمام معدات « الأصول الموسيقية » ولم ؟ لأنهم يعتقدون بأن الجندى يدفعه لخوض غمارات النضال عاملان :

الأول : المدافعة الوطنية المبنية على الشعور الكامن فى الفؤاد الذى يحتمه حبّ تربة البلاد .. إلخ .

الثانى : القوّة التأثيرية وهى قوّة الموسيقى فإنها تترك الجنود عند توقيعها ثملين بخمرة الشهامة والهمة راغبين فى التقدم إلى الأمام مهما كانت قوة الأعداء التى أمامهم » .

هكذا عرف هذا الرجل الموسيقى .. واهتدى إلى آرائه الخطيرة تلك والمبكرة جدًّا بسليقته وفطرته وموهبته الأصيلة التى غزت الغرب قبل الشرق كما يقرر الفنان بديع خيرى بقوله : « ولقد عزفت موسيقى سيد درويش فى فيينا فطرب لها النمساويون وتحدّثوا عن عبقريته بينما يشكّ البعض فى مصر إلى الآن فى مسألة عبقريته » .

زوربا عصره المبكر

لم تقو الموسيقى على جلال قدرها أن تخمد اللهيب فيه بل أشعلت الجذوة أكثر .. أن تخفف من ثقل الطاقة الخفية التى ترهقه وتضنيه . أن تمتصّ من نهمه وشبقه وجسارته .

كان ما لدى سيد درويش الموسيقار فوق الموسيقى فأطل من قمّة سلّمها على الحياة وملأ رئتيه من هوائها ونفثه حروف سيمفونية غمرت وجه الأرض .

وكان ما لدى سيد درويش الإنسان أقوى من الحياة فقذف بنفسه فى أتونها وأسرف فى تعاطيها وافتتن فى سُبل الصب منها

والتحايل على رتابتها .. فنهبها نهبًا قبل أن تنهب عمره القصير علّه يطفئ ظمأه وجوع لياليه .. علّه يكسر حدّة ذلك الفيضان المحموم فى داخله حتى اكتظّت به الحياة واكتظ بها فمات ! ..

لم يكف عن الشدو والرقص معًا .. رقص رقصة العشق حين امتزج بالحياة واختلط بتراب الأرض وعانق قلوب البسطاء والكادحين وتلمس الدفء والنغم من أعماق شعبه العريق .

ورقص رقصة الفنّ وهو يتلمس صدى ألحانه فى الأفراح وفوق صالات الغناء والحانات على شواطئ الإسكندرية والشام .

ورقص رقصة الجماهير حين خرج على الناس بأوبريتاته ينتصر للشعب .. ويسخر بالطغيان .

ورقص رقصة الثورة حين اندلعت شرارة فنّه فى أتون ثورة الشعب عام ١٩١٩ ..

وأخيرًا رقص رقصة الموت ذات خريف حزين فسقط قبل الأوان كما سقط فى مثل سنّه شوبرت وموتسارت العظيمان .

لذلك عاش هو .. ومات غيره وهم أحياء ..

أنشودة عازف على الأحجار

عاشق نعم .. ولكن من نوع خاص .. والناس فيها يع
مذاهب كما يقولون . ومذهب صديقى الفنان هو عشق الجماد
صوره .. حجرًا كان أو حديدًا أو حفنة طين تأسرهُ الصخرة
وكأنها عيون المها .. وتفتنه قطعة الحجر الصلد وكأنها صفح
حبيب .. ويضمّ عمود الحديد الصلب بشوق وكأنه يحتضن قوا
نافرة . وينحنى بشفته على رقائق النحاس كأنها شفاه معشوق
اللما ...

ويأخذه الوجد فى حضرة المحبوب فيكاد ينصهر مع ا
والأسمنت وسائر ألوان الجماد .. يطيل النظر .. ويمعن
ويتقلب على جمر المكابدة حتى يلين فى يديه الحديد والح
وصديقى عاشق ظاهره القسوة وباطنه الجد الحنون فعندما يغل
فى عروقه ويميد شوقًا يقسو على المحبوب كثيرًا فينهال عليه با
والمعاول والمناشير وكأنه يمطره بالقبلات بعد غيبة طالت .. و
تحرقه لفحة الأشواق فينطلق من أعماقه بعض الشرر وين

ينه النار حتى يذوب ولا يبقى إلا شبح المحبوب .. وهو غالبًا
يكون تمثالاً من الحجر يتكلم فى صمت - أو لوحة من النحاس
ض بالحياة أو رأسًا من البرونز يحدق فيك . فى كل الأحوال
ست حبيباته ليلى أو لبنى أو هند - وليس كسائر العشاق المعاميد
تب فيهن الأشعار .. ولكنه يعزف فوق الأحجار ويتفنن وينقش
قها حبات القلب - وبدلا من أن تنطلق الموسيقى وترف عرائس
شعر تتألق اللوحة وتنفجر الحياة فى الصخر - وتدبّ الروح فى
جر .. وساعتها يضحك مثل طفل له لحية سمراء ..

* * *

من أين نبدأ .. فالمشوار طويل - ومحراب الفنان ملىء بحصاد
مواره الطويل - ويسترسل فيقول : فى شبابى كنت أنظر إلى
بل المقطم وأقول لنفسى .. ليتنى أنحته كله .. ليتنى أحوله إلى
ال حيّ بدلاً من الغبار المتراكم عليه وعلى القاهرة الآن صرت
جوزًا .. أحسّ أن صوتى مذبوح وفى القلب جراح وكل شىء يتم
صمت . أنظر .. خمس عشرة عروسة نعم « عروس المولد »
ممتها ونحتّها وصهرتها فى النار . تعبيرًا عن العبور .. مصر هى
عروس .. تحت طرحة الزفاف وحول الثوب أبناؤها يركبون
قوارب ويجدفون عبر البحر عرائس فى المنزل كما ترى - لم تزف
صداهن إلى أحد .. الدولة أمى حقا ولكن أعمالى ترمى فى
بحر .. صدقنى رميت الكثير منها فى أعماق هذا القابع أمامك -

رميتها فى النيل الذى نجلس قريبا من ضفافه .. عمرى ستون عامًا صعب أن أختصرها . طفل مصرى.. من أسرة بسيطة عادية تسكن حيًّا بلديًّا « الطشطوشى » بباب الشعرية .. ضعيف البنية قصير القامة ولكن عملاق الآمال .. سأحكى لك حكاية .. بيتنا كان على الأرض .. أى كان عاريًا من كل أثاث .. على البلاط فقط مرتبة صارت لطول عمرها كالورق الشفاف . ذات يوم اشترينا حصيرة أذكرها جيدا إنها « شكشكتنى » أول مرة .. مازلت أشم رائحتها ... الآن حين أصلى أذكر رائحة الحصير .. رائحة السمر .. من هذا الحصير انطلقت وكان الفقر جميلاً وأجمل منه كانت المعاناة .. وذكريات هذه الأيام النازفة بالدماء تسعدنى .. لم أكن أعرف كيف أبدأ .. الفاقة تقرص جدار المعدة وأنا أحب أن أرسم .. وصورة الجنازة والفرح والزغرودة والموال وإيقاع الطبلة وصيحة المجذوب تأسرنى فى هذا الحى العتيق الذى نشأت فيه . ولأنى أحب لم يهمنى الفقر .. إرادة الحب هى أستاذى فى العمل والثورة . كان الحب رفيقى وكان البداية .. كان بلاط البيت من الحجر الجيرى فوقه بدأت أوّل خطوة فى رحلة الفن .. كنت أجلس فوقه أرسم وأنحت بمسمار بسكين حتى إذا ملأت البلاط رسمًا انتقلت إلى حجرات البيت حجرة حجرة .. حتى إذا انتهيت انطلقت إلى خالتى فى حىّ الجمالية .. كان الحىّ مثل الزمالك بالنسبة لى .. بيتها قديم مطرز بالمشربيات والظلال الشرقية ..

كانت نزهتى هذا البيت ومولد (سيدى مرزوق) والحسين والمبيضة
حارة الوطاويط والمسافرخانة . أبى كان سكرتير مدرسة
أم الخديوى عباس » أصيب فى عينه فلزم البيت واشتدت قبضة
لفقر حول عنقى . أخى الأكبر قرر أن يعمل ليعول الأسرة ،
عمل عند « الراعى » صاحب شعار : لولا الراعى ما انْكَسَت
لرعية فزوروا الراعى فى الغورية التحقت بكتاب « العبطونى »
شارع فاروق بالعباسية . اللوح الإردواز أخذ بيدى ، كنت أرسم
وأمحو وأنبسط جدًّا.. وتساءلت الأسرة : ما هذا الولد .. ؟ يكلفنا
بدراسته فى الكتّاب عشرة قروش شهريا .. هذا كثير فليعمل فى
صنعة ، فاشتغلت عند نجار أمام البيت وأوّل مرة أشعلت النار على
« الغراء » فشبت فى ملابسى وكدت أحترق . رجل من الحىّ كان
يعبر الطريق أنقذنى واقترح إدخالى مدرسة بالضاهر .. وكان القدر
لحظتها يحدد خطوات مصيرى . كان يوسف كامل .. الفنان
الرائد .. واحدًا من الذين ساقهم القدر فى طريقى ليتغير وجه حياة
ابن باب الشعرية ورفيق مختار وعياد وأحمد صبرى ووالد رفيقة
رحلتى وشريكة حياتى وأم ولدى « مَجْد .. » زوجتى « هدى يوسف
كامل » كانت المدرسة تحتاج إلى بدلة .. استلفنا بنطلونًا . وحشرت
فيه الجلابية وصرت أفنديا .. أوّل حصّة .. وبالمصادفات القدر .
حصّة رسم كنت أرتجف كأننى سأعمل عملية جراحية أو أواجه
دراكولا مصاص الدماء .. وشخط المدرس الذى فى يده عصا غليظة

قائلا : ارسم لى بياع وزه . لم آكل أوزا من قبل ولكن أعرفه من بعيد .. رسمت من الخوف ، وعندما اقترب منى « سعيد أفندى عبد الوهاب » مدرس الرسم بعصاه صرخت باكيًا . فوجئت به يقبلنى ويهدئ من روعى .. وصار صديقى وتبنى موهبتى وكان له فضل كبير على . حصلت على الابتدائية وقدمت للفنون الجميلة بفضل سعيد أفندى عبد الوهاب لجأت لفنان الحته يوسف كامل ليساعدنى على الالتحاق بالكلية رفض لأنها مدرسة الذوات والبعثات وتحتاج إلى تكاليف وأنت فقير .. قدمت أوراقى دون علمهم .. وسقطت فى الامتحان . كان الالتحاق بمدرسة الفنون بلا شهادات .. مختار يوسف كامل وراغب عياد ومحمد حسن وأحمد صبرى دخلوها بلا شهادات ولا ابتدائية .. الدخول الآن بالثانوية العامة . وبمكاتب تنسيق واسمها كلية ولا تخرج فنانين .. أليست خيبة ؟ قررت الانتصار على تكاليف الكلية .. أن أحصل على خامات وأدوات النحت فالتحقت «بمدرسة الفرير » بالفجالة لسبب غريب . كان لها « فنطاس زبالة كبير » وكان مليئًا بالنفايات ومعظمها من « الصيص » أى الجبس من مخلفات براميل الخمر التى كان يشربها رهبان الفرير .. كنت أسطو عليها وأجمع الجبس وأدقّه وأصنع منه التماثيل ..

كان زميلى عبد المنعم مدبولى وحلمى الزهيرى نجار « الأويما » الفنان أولاد الحتة .

عملنا عند نجار أرمنى فنان انتهيت من الثانوى ودخلت الفنون الجميلة قسم النحت وكانت مأساة أخرى . مشوار يومى من « الطشطوشى » للجيزة عند كوبرى بديعة حيث مدرسة الفنون .. وكان النحت يحتاج إلى صحة وقوّة حتى تلوى الحديد وتدق فوق الحجر صحتى ضعيفة وغذائى فقير فكان ترتيبى الأخير .

فى سنة ثانية أيضًا كان ترتيبى الأخير فقلت أترك النحت وأدرس الموسيقى . لماذا الموسيقى ؟ كنت أدندن وأعشق عبد اللطيف البنا ومنيرة المهدية وأحب سيد درويش .. وكانت الموسيقى لا تحتاج إلى صحّة جيدة مثل النحت .

نسيت أن أخبرك أنهم عرضونى على طبيب فقرر صحيًّا تحويلى لقسم التصوير وترك قسم النحت ورفض « يوسف كامل » ذلك - حكايتى مع يوسف كامل غريبة فعلا ..

إذا كنت نقيا فى الحب .. فأنت مع الله ..

وساد النحت فى حياتى .. أحسست أننى قادر على نحت جبل المقطم كله . « رودان » كان فى داخلى .. صاحب تماثيل « المفكر » والقبلة وبلزاك .. وبدأت رحلة أخرى . عملت مساعد صبّاب مع « عبد القادر رزق » بخمسة جنيهات شهريًّا وبدأ طريقى يتضح ... آمنت أن الله فن .. وأن النقاء فى الحب اقتراب منه .. بالحب النقى تكون معه مهما نزلت بك الكوارث .. مثلا .. أصيبت أمى بالشلل وتقرر سفرى فى بعثة سافرت عام ١٩٣٨ إلى فرنسا ومنها إلى

إيطاليا حتى عام ١٩٥٠ وكانت رحلة أخرى .. وعدت أخيرًا إلى « كلية الفنون الجميلة » وطنى الصغير الذى كافحت طويلًا حتى لا أعيش منفيًا عنه ... هذا الوطن الحبيب كيف صار الآن ؟

لم يعد وطنًا كما كان يعشقه الأبناء صار مرحلة تعليمية عليا لا أكثر .. خمس سنوات دراسة بلا معاناة أو رغبة ودراسة لا تجدى برغم سهولة وكثرة المعونات ولا يتخرج فى النهاية الفنان بمعنى الكلمة .. قلائل هم الذين يلعبون الدور الآن .. مكاتب القوى العاملة تمتصهم كموظفين ومكاتب التنسيق ترمى بهم كطلاب . ومن ثم يجب إعادة النظر فى تطوير الكلية وتحديد هويّة الملتحقين بها ، يجب أن يعود اسمها القديم« مدرسة » ولا داعى للمماحكة فى تسميتها كلية .. لأن الفنون الجميلة نوعية أخرى غير برامج الجامعة ، ويجب أن تشرف هذه المدرسة على جمعيات الرسم فى المدارس وأن يكون لها دور فى صالات العرض والمقتنيات وخروج الفن من بيوت الفنانين إلى الميادين والشوارع .. الصحافة لا تحتفل جيدًا بالفنون الجميلة .. السيادة الآن للكورة والسينما والرقص ..

الميادين تملؤها عساكر المرور وأكشاك الباعة وليس التماثيل واللوحات .

ستون عامًا .. ثم المعاش هل للفنان سنّ يحال فيها إلى المعاش ؟

- الفنان يموت واقفًا .. لا أحد يوقفه عن العمل إلّا الموت ..

ولو توقف يعيش من خلال أعماله .. لى أعمال فى متحف بوشكين بروسيا والمكتبة الأهلية فى نيويورك وبالقصر الكبير فى بكين وفى رومانيا وروما ومدريد ومتاحف مصر .. ومعظم ميداليات الدولة وآخرها ميداليات ٦ أكتوبر .. وحتى الآن أعمل .. فتمثال « العروس » رمز العبور لا أكف عن العمل فيه غيرته عدة مرات آخرها تكبدت سفرًا إلى روما لأصب التمثال بالبرونز هناك .

وآخر أعمالى تمثال « الصمود » الذى وضع فى بورسعيد . وعندما كنت هناك .. التقيت بالرئيس أنور السادات ودار بيننا هذا الحوار حول المعاش :

قال لى الرئيس الفنان : ازيك يا سجينى .. كيف حالك وعامل إيه ؟ .

قلت له : مش كويس تعبان وهذا العام أحال على المعاش وأطلب تسوية حالتى . وأمر الرئيس فورا بمنحى تفرغا وتسوية حالتى .

* * *

انتصف الليل .. وهبت نسمات حانية من النهر الممتد أمام عيوننا وارتفعت أنغام الأورج والجاز وسائر النحاسيات من الملهى الليلى المجاور !

ولكنها برغم صخبها الشديد لم تستطع أن تطغى على أنغام ذلك العاشق الأصيل الذى يعزف فوق الأحجار .

باقة ورد
فى حديقة السبعين

« نعم ..

لا خيل عندك تهديها ولا مالُ .

فليسعد النطقُ إن لم يسعد الحالُ » .

ولو بيدى .. لقلَّدتك قلادة من الضوء والحب والكبرياء لا جائزة من الاعتراف والتقدير والثناء .

نازعوك فيها ونافسك عليها حاسدون حسبهم جزاء ما يصلونه من جمرات الحقد وهم الضغينة .

ولعلّهم أضافوا فضلاً لا يشرفون به .. فما زادوك إلّا حبّا وصفاءً .. وما زادونا وسائر محبِّيك وعارفى قدرك إلّا مزيدًا من الإجلال لك والإقبال عليك .

ولا عجب .. فكل يُنفق مما عنده .. ولا أجد خير تمثيل نتعزى به من ذلك الشعر الجميل للطّرماح بن حكيم حين قال :

لقــد زادنى حبًّــا لنفس أننى

بغيضٌ إلى كل امرئ غير طائلِ

وأنى شقى باللئام ولا ترى
شقيًّا بهم .. إلّا كريم الشمائلِ

عمره ألف عام أو يزيد ..

لو كانت السنون تحسب عددًا .. فالحياة العريضة التى عاشها .. والمشوار الطويل الذى بدأه من كتاب « الشيخ البرامونى » إلى مبنى ماسبيرو ورئاسة اللجنة القومية للموسيقى باليونسكو .

وما بين الاثنين .. من نضال وطنى ومشاركة بدور الموسيقى والمقاتل فى حركات المقاومة الشعبية والفدائية بالقنال وفلسطين .

وما بين الاثنين .. من ظلام السجون والفرار من المعتقلات ومواكبة أحداث العصر والإسهام فى مجالات الفن والإبداع عن طريق الإنتاج والتوجيه والكتابات فى الصحف والمجلات والسفر والطواف والتجريب .

كل هذا الشريط الطويل من العمل والنضال .. يعطى الرجل ألف عام وأكثر .

وكم تنازعنا فى أمر هذه السنين .. ودار بنا الحوار . عامًا بعد عام .. دون جدوى .

يزعم .. أنه شاب فى الثمانين فقط .. حين يجىء عيد ميلاده الستين ، ويزعم أنه شاب فى التسعين عندما نحتفل بعيد ميلاده السبعين .

وحينما ألف وأدور بالسؤال حول السنّ والميلاد .. يبتسم ويروغ ويردد قول الشاعر :

ومـــاذا يـــدَّرى الشعـــراء مـنى
وقـــد جـاوزت حـــد الأربعـين

وأزعم أنا رغم أنف الشاعر .. فى ضوء هذا الشريط الطويل العريض من الذكريات وحصاد السنين وخصوبة الرحلة وامتداد الدرب . أنه أكبر من الأعوام السبعين بكثير .

إنه طفل الأعوام الألف .

نعم .. طفل مازال بالرغم من تعاقب السنين والتجارب واللحية الوريفة البيضاء .

وجهه الجميل المشرب بالحمرة الخفيفة .. وعيناه الزرقاوان الصغيرتان كأنهما عينا نسر يتسلّق قمّة شهباء ومشيته المهرولة الصامتة الخطوات .. وبسمته الغامضة الباسمة .. وإيماءة الكفّين والأصابع وملامح الفرح والدهشة .. والأسى والانطواء .. والضحك والبكاء .. كل هذه ملامح طفل لا شيخ فى السبعين .

أو قل شيخ يحمل بين جنبيه قلب طفل صغير يركض فى الفضاء الرحب .. يسابق النجوم .. ويغنّى للمروج .. ويعتلى لجّة البحار وموج الأنهار .. ويغنى للطيور والأشجار .

بالرغم من التزامه وصرامته .. ونظامه وجديّته .. إلاّ أنه سرعان ما ينكشف لك لطول معاشرته .. ما خفى فى الأعماق ..

تقرأ سطوره مهما حاول إخفاء العنوان فإذا بك أمام طفل أليف غضوب .. سريع الرضا والإعراض .. حالم مرهف كشاعر ، قوىّ عنيف كمقاتل دفّاق سكوب كغمامة ، رقيق حزين كعاشق ، ثائر جسور كإعصار ، شفّاف رفاف كنسمة فجر .. عريق عميق كشجرة ، جواد كريم كحاتم . إلى آخر قائمة التشبيه والمترادفات لو اتسع المقام .

باختصار .. تحسّ أنك أمام أحد معالم بلادنا الأصيلة .. تدور حولها وتجول فى أبهائها وتشمّ فى ردهاتها روائح التاريخ والخلود .

صَرحٌ من صروح بلادى .. وقطعة من ترابها ونيلها وماء السماء ، واحد من الذين يعبرون الحياة كالشهاب ويضيئون الطريق للعابرين .

ذلك هو صديقى العظيم .. مدحت عاصم ..

وتلك هى المناسبة .. عيد ميلاده الواحد والسبعون .

وكم تنازعنا فى أمر هاتيك السنين ..

ولم لا .. أقول فيه كلمة صدق ومحبّة من حقّه أن يسمعها منّا وهو حىّ بيننا يثرى الحياة ويتفيأ ظلّه الأصدقاء .

لماذا لا نعرف حلاوة الصحبة وجمال الإمتاع والمؤانسة إلاّ بعد أن تتسرب الأيام من بين أيدينا كالماء .

فلا نملك إلاّ أن نكتب بعدها فوق وجه الماء .

ولم لا نحسّ بزهو المعاصرة وألق الأيام القريبة .. فنسجلها

ونتحدث عنها قبل أن تفلت من أيدينا وتصبح ذكرى نثرثر بها حين يجرفنا الشوق ويثور بنا الحنين .

وكيف لا نملأ القلوب والأبصار من تلك الوجوه المشرقة فى سماء جيلنا المطلة على حياتنا القاحلة إلا بعد أن تصير نجومًا تتألق فى ليالى الشوق والذكريات ..

ها هو .. يعيش بيننا . ملء القلوب والخواطر.. نراه ونصغى إليه وهو يفيض ويتدفق عامًا بعد عام .

ويحتفل هذه الأيام بعيد ميلاده الجديد وكم تنازعنا فى أمر تلك السنين .

* * *

ذات ليلة .. منذ خمس سنوات ..

فى منزل جاره على النيل الموسيقار محمد عبد الوهاب .. طالت وحفلت بالحديث والشجون والذكريات .. عن رحلة الفن .. وليالى باب الشعرية والعباسية .. وشوقى بك أمير الشعراء .. وذكريات عبد الوهاب التى لا تنفد عنه .

وبين الاثنين جلست أصغى إلى حديث الذكريات العريقة الممتدة .. وكيف كان عبد الوهاب .. صبيًّا صغيرًا يتسلقّ بصوته النحيل الصغير مآذن الجوامع وليالى الأفراح .. وكيف التقى به مدحت عاصم .. الفتى اليافع الذى يتبوأ المناصب ويساهم فى الحركة الفنية وهو فى سنّه الباكرة تلك يلتقى فى بيته كل ليلة لطفى

السيد ود . هيكل وزكى مبارك ومحمد عبده وشوقى إلى آخر قائمة نجوم العصر الذهبى .

ويحكى عبد الوهاب .. ويصغى العم مدحت ويهز رأسه موافقًا ..

ويتذكران .. عندما جاء السنباطى إلى القاهرة متأبطا عوده .. ويلقاه أوّل من يلقاه مدحت عاصم .. وعندما .. التقى بفريد الأطرش .. وأسمهان . ويكون أول من يقدّم الاثنين

ويتتابع شريط الذكريات .. ونقرأ أشعارًا لشوقى وناجى .. ونعود إلى الوراء وأحس أننى أجلس بين يدى قرنين من الزمان ..

وأنتهز الفرصة .. لأعرف حساب السنين .. وأدور بالسؤال تلو السؤال .

كم سنة مرت .. عبد الوهاب والسنباطى وفريد الأطرش وأمير الشعراء .. أيهما أكبر فى السنين وحديث الذكريات عبد الوهاب أم مدحت عاصم ؟ .

وهل هذا الفارق فى السنّ .. يتسع لكل هذه الأيام المشحونة العامرة بالعمل والإبداع والمعاصرة .

ويتضاحك الاثنان .. وبدلاً من أن أقع فى فخّ واحد .. أقع فى اثنين .. ويالهما من اثنين ! كأنهما أسدان رابضان على بوابة التاريخ .

كلاهما رائد عملاق .. وكلاهما.. فى عنفوان الشباب وفتوّة الذاكرة .. بالرغم من حساب السنين العسير .

وعندما تطول المحاورة والمناورة .. يبتسم لى الصديق العظيم

وهو يقول :

المهم .. إنك الوحيد الذى سيكتب قصيدة فى رثائى .. تلك وصيتى .

* * *

من أين أبدأ ؟

وهو كالبحر من أى النواحى أتيته .

وكيف أبدأ ؟

وهو كالليل .. الذى يدركك وإن خلت أن المنتأى عنه واسع رحيب .

خمسة عشر عاما تفيأت فيها ظلال هذه الشجرة المصرية الخضراء .. وتنسمت فيها نسيم هذه القمّة العالية الشمّاء .. كان هو صاحب السبق كالعهد به .. عندما صدر ديوانى الأول « فصل فى الحكاية » فإذا به يشترى منه مئات النسخ ويوزعها على الأدباء والنقاد والأصدقاء ويسعى لألقاه ويلقانى .

وكانت بداية صداقة لم تنقطع يومًا .. تنأى بنا الأيام .. ويتكاثر علينا اللوام ويشى فيما بيننا الواشون دون أن تفقد الصداقة تلك الجذور العميقة الواغلة فى بطن الأرض .

وطوال هذه السنين لم يترك مناسبة ولا فرصة إلا وكتب وتحدث ونوّه بتلك الأشعار .. دأبه معى ، ومع الآخرين .

قدّمها للأستاذ عبد الحميد الحديدى رئيس الإذاعة حينذاك

وقدّمنى إليه واختار منه قصائد للغناء عرفت طريقها إلى الناس .

وتصدّى لها الشاعر الراحل الكبير محمود حسن إسماعيل .. لمجرد كونها شعرًا جديدًا لا مكان له فى الإذاعة .. وكان أوّل تعارف حقيقى لى مع شاعرنا الكبير أسفر بعد التحام وجدال عن صداقة وإكبار .. فكسبت صداقة شاعر كبير وإذاعى كبير .

لم يمر موقف أو مناسبة .. فى مقال أو حديث أو لقاء إلاّ وكان صاحب فضل وإشادة وإيثار ..

فكيف أجازى الرجل .. وقد غمرنى .. كما غمر غيرى بالكثير من حبّه وتقديره ؟

ليس أقل من باقة ورد ورقاتها .. من الكلمات والحروف لعلها أبقى فى العبير والفوح من الزهرات والورود .

وليس أقل من هذه السطور المختصرة .. تعبر عن بطاقته الشخصية وتقدم له على استحياء .

فى ٢٠ فبراير ١٩٠٩ ولد مدحت عاصم بحىّ العباسية الشرقية بالقاهرة .

● تلقّى تعليمه فى كتّاب الشيخ البراموني .. ثم مدرسة الحسينية الابتدائيه .. ثم فؤاد الأوّل والخديوية الثانوية ثم مدرسة الزراعة العليا .

● تعلّم الموسيقى الشرقية على يد الشيخ القبانى ودرويش الحريرى .

وتعلّم الموسيقى الغربية على يد « الرامبتزونى الإيطالى » « وشليز بنجر الألمان » « وجوليو دريندا » وجوزيف هوتيل التشيكى .

● فى الخامسة عشرة من عمره . كتب أوّل مؤلفاته الشرقية « سماعى نهاوند » ثم سماعى نكريزو سماعيات من مقام الرصد والبياتى .. فكانت أولى السماعيات التى كتبها مؤلف مصرى .. بعد البشارف والسماعيات التركية .

● فى العشرين من عمره اختير عضواً بالمعهد الملكى للموسيقى الغربية وكان قد نشر سلسلة من المقالات فى البلاغ الأسبوعى ترجم فيها لموزار وفاجنر .. والسياسة الأسبوعية التى أثار حملة فيها ونادى بإعادة النظر فى الموسيقى العربية .. وإضافة آلات جديدة .. والتعريف بالموسيقى الشرقية والموسيقى الغربية من الناحية العلمية .

● فى الواحد والعشرين من عمره .. أصبح أوّل مدير فنّى مصرى للإذاعة عزف على البيانو أوّل لحن غربى على غرار البوليرو – حانات باريس .

● كوّن أوّل فرقة موسيقية – بعد أن كانت الفرق فى ذلك العهد تختًا .. وأول أوركسترا للإذاعة قدم أعمال داود حسنى وكامل الخلعى وسيد درويش بجانب بعض المؤلفات الغربية .

صاحب الخريطة العامة لبرامج الإذاعة الأدبية والفنية والموسيقية

وكان أوّل من احتفل بسيد درويش .. وأنشأ إذاعة القرآن الكريم والموسيقى .

● فى الأربعينات جرفه المدّ الثورى والنشاط السياسى السرّى فدخل السجن ثم المعتقل حيث هرب من البوليس السياسى والمخابرات البريطانية حتى انتهت الحرب .

● كان أستاذه الروحى عزيز المصرى .. حيث نظم الحركة الفدائية وكانت تجتمع فى بيته وتضمّ نخبة من ثوار مصر لتمارس نشاطها السرى .. ضدّ الاستعمار والملك .

بعد قيام الثورة .. سلّم مدحت عاصم جميع الأسلحة والذخائر والقنابل إلى قيادة الثورة حيث أوفد جمال عبد الناصر المرحوم كمال رفعت وتسلمها .

● فى عام ١٩٥٤ تطوّع مدحت عاصم .. وفرقة من الفدائيين والحرس الوطنى وشارك فى العمليات الفدائية فى فلسطين .. حيث فقد سمعه من قنبلة كادت تقضى عليه .

وهناك أرسل له عبد الناصر يقول :

« أرجو أن تعلم أننا جميعًا مواطنون نعمل فى حقل الوطن سواسية لعظمته وتخليده .. وكيف لاتكون أسدًا مظفرًا وأنت رابض على حدود الوطن تدفع عنه الغارة وتصمد للعدوّ كتب الله لك ولإخوانك السلامة والنصر والله أكبر والعزة لمصر »

طوال الستينيات والسبعينيات شارك فى الحياة الفنية مشاركة

فعّالة مستشارًا فنيًّا وعضوًا بلجان التحكيم العالمية فى اليونان وبولندا وباريس وفينيسيا ولندن والنمسا وألبانيا وغانا وكندا وتشيكوسلوفاكيا .

ونال عدة جوائزة عالمية فى الموسيقى ثم جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٧٤ ، التى جاءت تتويجًا لتاريخ طويل فى حياة رجل يعتبر أحد معالم القاهرة .. وبعض الناس يتحولون إلى صروح قومية بفضل الموهبة والجهد وحب الناس .

لقد عرف مدحت عاصم .. الدنيا بكل وجوهها .. المضيئة والمظلمة الحلوة والمرة .. من ظلام السجون .. ومطاردات البوليس إلى أضواء الشهرة والنجاح .. من رقة العواطف المشبوبة إلى عنفوان النشيد وجلال النضال الوطنى .

وبعد ..

مازال .. فتى الأعوام الواحد والسبعين وابن الأعوام الألف ..

الطفل ذو اللحية الوريفة البيضاء .. يعيش الحياة بعمق ورحابة ويسكب من قلبه المجهد العليل .. كل ما يملك من عطاء وحب وغناء .. للحياة والانسان والغد المشرق الجميل .. دون أن يفقد ذلك الوهج الحميم والشوق الدافق والحماس المشتعل فى الاثنين معًا .. سلوكه وفنّه الرائعين .

أمين الخولى شيخ الأمناء

« كانوا كاسمهم أمناء على الجمال »

طه حسين

حين ينجلى تراب المعاصرة وتنحسر موجات التكالب على البقاء والظفر بالضوء .. وحين يعتدل ميزان النقد وينقشع عن عيون حملة ضباب الرؤيا بعد أن توّجوا من لا يستحق وخفضوا من يستحق .. سيشرق اسم أمين الخولى كأنه الشمس حجبها طول الظلام .

وستتألق سيرته كأنها سبيكة الذهب النادرة لم تصدأ تحت ركام التراب ، وإنما تزداد لمعانًا وتوهجًا .

لأنه واحد من هؤلاء الصفوة الرائدة الذين تعددت جوانبهم يمرّون فوق أديم الأرض فيتركون وراءهم ما يمكث فيها .. وما يملأ أفق الدنيا عطرًا وفكرًا .. ويبقى على مرّ التاريخ ذخرًا .

كان أمين الخولى كالبحر من أى ناحية قصدته .. معلما ورائدا وفنّانا وأديبا ومفكرا ومسرحيا عالج المسرح مبكرًا فى خمس مسرحيات .

معلّم .. وصفوه بأنه « سقراط مصر » لما بذره فى نفوس طلّابه من قيم عليا وحرية القول وجسارة الحوار والتطلع للجديد النافع فالتجديد عنده هو « قتل القديم بحثًا » .. لا نبذه وراء الظهر .. ومن ثم تخرّج على يديه العديد من روّاد الأدب والنقد والشعر اليوم .. أجيال متتابعة لا تنسى قطّ وجه المعلم .. ولا تفتأ تتذاكره كلما امتدّ بينها حبل الحديث ..

لم يتح لى أن أنتظم فى صفوف طلابه وأتلقى عنه كأستاذ وإنما عرفته من خلال السطور .. نشأت بيننا تلك العلاقة الروحية الحميمة التى لا تستبين لها علّة وإنما تربط بين القلوب بآصرة الأبوة والإخاء والصداقة وامتدت بيننا هذه العلاقة طوال سنين من خلال القصائد والرسائل التى كنت أبعث بها إليه فى مجلته الرائدة « الأدب » ونحن نزلاء الأقاليم من شداة الشعر تكبّلنا قيود الوظيفة وأعباء العيش وتناوشنا أحلام الضوء والعاصمة ويقعدنا عنها أغلال الأسرة وهجير الغربة ..

كنت أحس معه بهبوب تلك الريح الطيبة من بين أعطافه تغمر وجه المساء ويمتدّ أريجها من حديقة بيته الصغيرة إلى حديقة النفس وقد انتشرت فيها الأشواك وصوّحت الغصون تلك الريح العاطرة التى تعلق بثنايا هذه الفئة القليلة من أصحاب السيَر والمثل والريادة ..

كان دائماً يرتسم أمامى كأنه شجرة الجميز العجوز .. تنشر ظلّها

كله على القرية وترمى بثمارها لكل عابر .. قوامه الفارع الفروسى وابتسامته العذبة الواعية ونظرته النفاذة وشيخوخته الفتية وزيّه المهيب كأنه رائد عملاق انشقّت عنه تلك القرون القديمة فتحدَّر بين أروقة بغداد وغشى مساجد الكوفة وجادل أهل البصرة وبذّ أساتذة المربد .

ومرّ على الفيحاء عاصمة أمية فتحلّق الحلقات وخالط وجوه القوم فيها ونفر من سلاطينها وقصورها وتركها إلى هضاب نجد والحجاز يقلّب فى تراثها ويتعقب أثر النبى وصحبه ويتقصى أخبار رواتها وأهليها مردداً شعاره الأثير :

« لا تزال الكلمة عن الدين دون مستوى الثقافة القديمة » .

ثم عرج على فارس القديمة والغرب والهند وبلاد الإغريق ورُبا أندلس .. فتجوّل بين دهاليزها وفضّ أختام مكنونها .

ولم يقف ذلك العملاق الشامخ فوق أرض هذا التراث وحده بل شملت سياحاته الشعوب والحضارات الأخرى فأتقن عدّة لغات قراءة وكتابة منها الفرنسية والإيطالية فكتب فى الثلاثينيات بحثاً مبتكرًا باللغة الإيطالية ألقاه فى مؤتمر كبير بروما بعنوان : « أثر الإسلام فى إصلاح المسيحية » وهو بحث لم ينشر على الناس بقدر أهميته الفكرية .

كانت هذه اللغات الأجنبية وسيلة أضافها إلى وسائله الأخرى . لتكون دليله على استيعاب صميم التراث وتفتح للعقلية المصرية التى

شبت على علوم الدين ومتون اللغة والفقه وسجنت نفسها فى مضيق واحد ولكن الخولى تجاوز ذلك المضيق وجاهد فى سبيل تثقيف نفسه ليكون جديرًا بلقب الرائد .

فكان أشبه برجل أسطورى .. العمامة فوق رأسه والملابس الإفرنجية تحت جبته والنكتة لا تفارق شفتيه وأمثال القرية الشعبية على لسانه .. والنقد الجادّ الصارم سلاحه الذى يرفعه فى وجه الصديق والعدو .. فهو لديه : « التنفس الذى يأتلف من عنصرين : الحرية والنزاهة » .

نزح من ريف مصر وجاب البلاد والعصور وعاد وجعبته ملأى وصيده وفير ليقف فوق ثرى القرن المعاصر يصب حصاد القرون فى القلوب والعقول يربّى ويثقف ويصادق ويؤاخى ويفتح المغاليق دون أن تنحنى هامته لغير ما يدين به ودون أن تفقد أعوامه التى جاوزت السبعين نبضها الحار وإيمانه المطلق بالتجديد والتحرر والثورة — ودفع الشباب دفعًا لأن يثور ويقتحم الآفاق ولا يخشى فى الحق أحدًا .. فالشباب لديه ذخيرة وعدة المستقبل وهم شيوخ الغد .. وقوة الفكر الذى لا يقهر ..

* * *

كان دفء الليلة الشاتية وملاذ الغربة الداجية فى دوار الطواف والوحدة . وكنت أفزع إليه وقد اشتد الكرب وغام الأفق وعزّ الأنيس فأحسّ أننى جالس فى رحاب بهو من أبهاء التاريخ مستظلًّا

بفيء شجرة من حنان وحبّ ومزيج من أبوّة وإخاء ونبل ووفاء وروح تقطر ندى وعطاء وتفيض نورًا ونفاذًا .

كنت أشمّ ريح أبي الشيخ النازح البعيد وقد طال بنا الشوق وافتقدت هبوب ريحه العاطرة وأنا أختنق بغبار السفر ونعيب القطارات وأعود .. وقد تبدد الكرب وانفلت الهمّ وأفرغ هو فى وجدانى ما يجلو البصر والبصيرة ويثرى المعرفة ويشحذ الأمل ويعين القلب على المسيرة والتجلّد .

وما كان أكثر اللائذين به من روّاد وخلصاء وما كان أرحب قلبه الذى اتسع لكل من يلوذ به .

كنت عندما ألوذ به .. يخصنى بالإقبال والودّ والتعاطف وكأننى أقرب الناس إلى قلبه وحدى .. وكان هذا الشعور هو شعور كل من يهرع إليه طلبًا للأنس أو هربًا من وجيعة أو رغبة فى معرفة أو رأى كل من عرفه وجلس إليه كان يحسّ أنه وحده الأثير لدى الشيخ ، لذلك التفّ حوله الشباب جيلاً بعد جيل .. أستاذًا فى الجامعة وأبًا صديقًا فى البيت يطرق بابه الزائرون مثقلين بالكثير مما يثقل القلب والعقل .. فيعودون وقد اغتسلوا بصفاء حديثه وتعطروا من رذاذ روحه وتزودوا بزاد واف من الأمل والثقة .

كان يفوح من قلبه عبير .. لا يحسّ به إلاّ من عانق هذا القلب عبير هو مزيج من عبير الأرض وطمى نيلها السخىّ فما استطاع طوافه بأوربا ولا صراعه ومعاركه مع أولى الأمر ولا التحامه

بالحضارات العديدة أن يكسر حدّة هذا العبير أو ينزع جلد القرية منه أو يفسد صفاء عقله وأصالة تفكيره ..

كانت عبارته الأثيرة التى يتخذها مثلاً له كلمات قليلة يقولها لنا . ويطالبنا بالعمل بها : « كريم على نفسى » .

وكان بيت الشعر الأثير لديه يترنم به ويدفع به عن نفسه سحابات اليأس هو :

صبورٌ ولو لم يبق فىَّ بقيةٌ
شجاع ولو أن السيوف جوابُ

كان قلبه ملآن بالنور والنار .. وروحه تتألق بالحب والمعرفة وعقله يشرق بالجدل الحرّ طلبًا للحقيقة ، فقد كان يعمل من أجل تربية وجدان الشباب ومن أجل أن تعلو كلمة الحق وروح العلم فوق المواريث البالية التى تعوق انطلاقة الفكر وتعزل الدين وتعطل مسيرة البحث والإبداع وتعتاق التطور .. لذلك ارتفع صوته هادرًا صادقًا فوق كل صوت فأثار من حوله الضجيج بقدر ما شدّ إليه قلوب المتطلعين .. وكان صاحب منهاج جديد فى البحث وأسلوب مبتكر سهل فى الكتابة .. فترك للمكتبة العربية كتبًا رائدة مثل : فن القول .. وسلسلة هدى القرآن ومالك والمجددون فى الإسلام وقادة ورسل .

ولم يكن أمين الخولى صاحب تطلعات إلى شىء من زخرف الدنيا

ومن مباهج سلطانها .. وإنما كان تطلعه الوحيد العمل والفكر من أجل الحياة والإنسان .. ومن ثم احتفظ لنفسه وشموخه وسط كل التيارات لم يندس فى ركاب أحد ولم يتسلق سلمًا لمنصب فظلّ حتى آخر حياته مترفّعا كتوما راصدا للحياة حوله يجهر بما يؤمن دون خوف ويمشى فى طريقه إلى الأمام لا يتلفت للوراء .

وهكذا عاش أمين الخولى .

لم يكن أستاذاً جامعيا ولا عالمًا مجدّدا ولا مناضلًا فكريا وسياسيا ولا مجادلا عظيما ولا تقدميا حرًّا .. ولا كاتبًا مجددا فى الأدب والفن والدين واللغة والنقد .. ولا مؤلفًا مسرحيا عالج المسرح فى سنيه الباكرة .. ولا أبًا من طراز فريد .. ولا صديقًا من أندر الأصدقاء .. ولا شيخًا للأمناء فحسب بقدر ما كان سيرة تروى وتخلد .. ومثلًا يحتذى بين الأجيال وعلمًا من أعلام الفكر والحرية والتقدم . هبط الأرض ليترك فوق ثراها وقع خطاه .. ويترك فوق أديمها بصمات قلمه .

ورحل أمين الخولى ذات ربيع « ١٩ مارس ١٩٦٦ » بعد أن أتم رسالته فى الأرض .. رحل عنها وعنّا فى صمت وكبرياء وكأنه قد أتم أداء رسالة سرية فيها .

* * *

وكلما هلّ الربيع وهبّت نسماته آخر الليل تثير الشجون والمواجع أطل وجه الرجل من بعيد وكأنه غمامة سكوب تبكى على

أبنائها الحائرين الساهرين نحو اللاشىء .

ونفتقد الشيخ أبًا حانيًا كلما جاش الصدر بما لا يقال وصديقًا نادرًا فى محنة سقوط الأصدقاء . ودفئا وثيرًا كلما عزّ الدفء فى الليلة الشتائية الداجية .

وسلام على شيخ الأمناء ..

مندور
طائر رفض أن يهاجر !

فى غيبة النقد النبيل وفى تحوّل الضمير الأدبى عن تيار الصدق والمعاناة بحيث نفتقد معنى النقد البنّاء الجاد لإيثار الأقلام النقدية الدوران حول الملعب دون الدخول فى حلبة السباق ركونًا إلى اللين وهروبًا من عناء التأمل والمكابدة فشاع إطلاق الأحكام جزافًا وكثر تبادل الأنخاب على شرف ثالوث النقد المقدس الذى هو الحب والحق والعدالة .. فى غيبة هذه الروح النقدية الأصيلة وبالتالى فى غيبة الأعمال الأدبية الأصيلة يطلّ وجه « مندور » المعلّم الرائد ليملأ الساحة الفارغة ويتطلع إلى خريطة النقد ليجد اللون الأصفر .. لون الصحراء .. يكاد يغطيها .. ويطرح العديد من الأسئلة وكأنه أرسطو المعلّم القديم يتحدّث فى الشعر والنقاد .

أين هم النقاد والنقد الآن ؟ ما هى مواصفات شرف اللقب .. لقب الناقد الأصيل ؟ وبأى ميزان توزن الأعمال الأدبية ؟ وأين هى هذه الأعمال ؟.

وأخيرًا .. ماهى الضمانات الواقية لحماية الكلمة النقدية

الواعية ؟ والذود عن ساحة النقد فلا يعبرها إلّا الفرسان النبلاء الذين يشهرون القلم سيفًا ويرشقون الكلمة رمحًا فى معركتهم الدائمة من أجل القيم الإنسانية الجميلة والمثل العليا ؟

رحل مندور .. وقبله المعدّاوى وبعدهما غنيمى هلال .

وهاجر آخرون لبلاد الفرنجة وعواصم النفط وبين ردهات الجامعة وأعمدة الصحافة اليومية والأسبوعية .. وخلت الساحة لكل وافد مجهول الهوية لا يحمل جواز المرور إلى عالم الكلمة .. ولكنه يملك مساحة بيضاء فى ركن جريدة أو زاوية على موجات الأثير أو الشاشة الصغيرة يصول ويجول من خلالها رافعًا هراوته فى وجه من يشاء فرحًا بما أوتى من انتشار وازدهار حتى أصبح الخطر كامنًا فى رسوخ هذه الانتشارات والتعميمات فى الأحكام والموازين فى عقول أجيال مقبلة تأخذ بها فتكون الطامة .

لقد تنبأ « طه حسين » منذ نصف قرن بمثل هذا .. على قدر ما كان يموج به عصره من تيارات فكرية وأدبية رائعة .. فقال وكأنه يعنى الحياة الأدبية هذه الأيام :

« إن حياتنا الأدبية فى هذه الأيام موبوءة حقا وإن الوباء الذى يفسد طبيعتها ويوشك أن يجعلها شرا خالصًا إنما يأتيها من ضعف الثقافة وضيقها وقلّة حظّها من الغزارة والعمق وبين الجاهلين المغرورين على مالاينبغى أن يوغل فيه جاهل ولامغرور» .

فالناقد هو الفنان الآخر .. هو الشاعر الثانى .. هو العين الثالثة

التى تضىء كالشعلة لتنير السبيل للغير ليعرفوا مواطن أقدامهم .

لذلك كانت مهمة النقد شاقّة وشائكة .. تلك المهمة التى تكاد تصل إلى حدّ الصوفية لأنها بمثابة مقام الحلول محلّ الفنان وتخيّل ما يجرى فى نفسه أثناء عملية الخلق ليلقى الضوء على روح الإبداع متحررًا فى أية نوازع مرتفعًا فوق أى مؤثرات إلاّ الحق ولا شىء غير الحق .

وهذا ما فعله كبار الفنانين والأدباء الذين رفعوا لواء النقد وأضاءوا الحياة الأدبية أمثال « كولردج » الشاعر والعالم والأديب والفيلسوف وصاحب لقب أعظم ناقد وأعظم كتاب كتب فى النقد الإنجليزى ما الذى فعله كولردج الإنجليزى ليصبح ثالث النقاد بعد أرسطو ولونجنيس كما وصفوه ؟

لم يفعل أكثر من واجبه الفنى ..

لقد ضحى « كولردج » بالشعر وبالشاعر ليكون ناقدًا فقط .. وللشعر وحده ..

* * *

ومن هنا .. تداعت الذكريات فى ذكرى « مندور » المعلّم والرائد والناقد والمناضل المصرى الذى تفوح من ثيابه روائح الأرض وعبير الحقول وتنتشر فى ثقافاته حضارة الإغريق والعرب والمصريين .

ودراسات السوربون والحقوق والاقتصاد ومعهد الأصوات بجامعة باريس وملامح ديهاميل وسانت بيف ومالارميه ولامارتين

وطاغور وأرباب الإغريق .. لم يأت مندور من فراغ وبالتالى لم يصب فى فراغ .. ولم يدر حول حلْبة السباق وإنما خاض معركة وركض بجواده لآخر الشوط حتى سقط مرتكزًا على رمحه فوق صهوة الجواد .

وإنما نبت مندور فى حديقة العمالقة وغرس بذرة بجوارهم .

جاء من عاصمة النور وقلبه ملآن بالحكمة والنور وعقله مثقل بالمعرفة والطموح وشبّ فى مرحلة بدأت فيها أمواج الرومانسية تنحسر من شاطئ الشعر لتدخل مرحلة واقعية جديدة يمتزج فيها الأدب بالسياسة .

كانت الطريق شائكة وممهدة فى نفس الوقت حيث يقف على ناصيتها العقاد والمازنى متأثرين بالإنجليزية .. وطه حسين وهيكل متأثرين بالفرنسية وينضم إلى موكبهم مندور دمًا جديدًا حارا ينادى بربط الأدب بالتطلع إلى الأفضل وبضرورة حاجة المجتمع المصرى إلى صدمة حضارية عميقة تردّه إلى وعيه التقدمى والفنى .

ولا ينزع مندور جلده الذى خرج به من القرية إلى باريس ولا يعطى ظهره للتراث العربى فيخرج على الناس بكتابه « النقد المنهجى عند العرب » وينال درجة الدكتوراه التى لم يأت بها من السوربون .. وليصبح مرجعًا وعمدة للدراسات الأدبية الحديثة ، استوعب فيه القديم ومازج بينه وبين الحديث فوضح بذلك فن أصالة التفكير العربى غير فاصل بين وحدة التراث عامة وجذوره

الضاربة فى بطون الأدب المختلفة ما بين الإغريق والفراعنة والعرب وأوربا .. فيفتح بذلك على كل الألوان من مختلف الثقافات ولا يقع فى مضيق اللون الواحد .. فيقدم لنا فى « نماذج بشرية » لوحات نابضة لأدب الألمان والروس والأسبان والطليان والإنجليز والإغريق .. ويعرض لنا فى أداء جديد الكوميديا لدانتى وفاوست لجوته وهاملت لشكسبير ودون كيشوت لسرفانتيس والعبيط لدستوفيسكى .

كان مندور من ذلك النوع النادر الذى يطلّ على الحياة فيشيع فيها من لطفه وجوهره ما يمكث فى الارض .

كان فلاحًا أصيلًا .. فى عروقه خصوبة الأرض وفى جسمه عنفوان المناضل وفى داخله خضرة الوادى وفى أعماقه رقّة الشاعر .. فعاش حياة عريضة خصبة كفكره العريض الخصب فنال الحقوق والآداب معًا وسافر إلى السوربون بما تلقى على حدّ قوله من تعليم كلاسيكى ليبرالى ليواجه الحياة المشحونة فى الغرب التى انتهت بالحرب العالمية الثانية ومن هناك كانت غربته الأولى مدخلًا ملائمًا لممارسة التأمل وإعادة النظر فى كثير من المفاهيم فيعود إلى بلاده كما يقول : « بعينين أقوى إبصارًا وأحدّ ملاحظة ليجد البلوى أعمّ وَالبطالة تتفشّى والمشتغلين بالفكر يتحكم فى ضمائرهم الناشرون وأصحاب الصحف » .

ويبدأ مندور رحلته الغربة الثانية فوق ثرى بلاده وتحت قبة

الجامعة بالذات التى قبع الاستعمار تحتها وبين المثقفين الذين أداروا ظهرهم للحياة وبين القيادات السياسية التى تغمض عيونها عن بؤس الفلاحين والعمال .

ولم يجد مندور مناصًا من دخول المعترك .. ومحاربة كلّ طواحين الهواء فأنفق طاقته فى كل الجبهات ، فى الجامعة والصحافة ومجلس النواب والمحاماة مزودًا بروح الفكر وقلم الثائر وعين الناقد فوقف بين صفوف الشعب يدافع عن حقّه فى الحياة وينادى بالاشتراكية فى ظلّ العرش الملكى وكبار الأعيان عام ١٩٤٥ باعتبارها « مذهبًا » لا يخيف فى شىء .

وكانت مقالاته النارية عن الديمقراطية والعدالة وحرية الفكر وأصحاب الأرض ، ومشكلة الفقر وإعلاء كلمة النقد ، كانت بمثابة نار حامية ألهبت الرءوس وأشعلت التيار الوطنى حيث اشتغل مندور بجرائد المصرى وصوت الأمة والوفد المصرى وأصدر مجلة الطليعة الاشتراكية ومجلة البعث وكان له فى هذا الميدان فضل السبق فى تحويل المقالة الصحفية إلى وثيقة فكرية تحررت من الخطابة والرتابة وحفلت بمضامين ثورية وفكرية أرّقت طغيان الحكم وزلزلت مقاعد الشيوخ والنواب فعرف الفصل والتشريد حتى بدأ مرحلة أخرى بين جدران السجون عام ١٩٤٦ عقابًا على رفع عقيرته بقلائد الحرية والكبرياء .

فلقد كان الشعر أحب الفنون إلى قلب مندور وكان هو نفسه

أقرب إلى روح الشاعر من عقل العالم الفيلسوف فجاءت مقالاته أشبه بالقصائد المدوية حتى ليصف كتابه الصغير الحجم الكبير القيمة « فن الشعر » بقوله « العزيز على نفسى » .

ولكنه خلال هذا كله لم يفرط قط فى شرف اللقب . لقب الناقد البصير والجسور الذى لا ينبع فنّه إلّا من داخل نفسه ووحى ضميره .. وصاحب العين الثالثة التى تحمل الشعلة للآخرين .. ولم ينفصل مندور عن هذا المعنى طوال أعماله العديدة كناثب ومحام وأستاذ جامعى وصحفى ومفكر تقدمى وأخيرًا كعضو فى مجلس السلام العالمى الذى خصص جائزة عالمية باسمه تكريمًا لدوره وذكراه حيث غادر الحياة منذ أحد عشر عامًا عن خمسة وعشرين كتابًا فى مختلف ألوان المعرفة والفكر والأدب وسبعة كتب مترجمة على رأسها « دفاع عن الأدب » لجورج دى هاميل .

وهكذا .. عاش مندور طائرًا محلقًا فى الأعالى .. يرفّ بجناحى النسر .. فى الهواء الطلق ويبنى عشّه فى مهبّ الريح والعاصفات دون أن يهاجر مرة واحدة بعيدًا عن سماء بلاده .

المازنى
وحصاد الهشيم

كان عملاقًا على قدر قامته القصيرة وثّابًا منطلقًا بالرغم من ساقه العرجاء فياضًا متدفقا مرحًا على قدر ما تلاطمته أمواج الحياة طوال رحلة شاقة عريضة استغرقت ستين عامًا ويوما .. هى عمره فى هذه الدنيا منذ ولد فى أغسطس عام ١٨٨٩ حتى رحل فيه عام ١٩٤٩ .

عمل المازنى مدرسًا طيلة عشر سنوات فى صحبة صديقه العظيم العقاد ولكن ما لبث أن ضاق بقيود الوظيفة فتمرد عليها بعد أن شقّ له بقلمه طريقًا ولفت الأنظار بمقالاته وأشعاره فعمل بالصحافة على مدى ثلاثين عامًا عرف خلالها الطرد والتشرد والمكابدة حتى استقر أخيرًا رئيسًا لتحرير جريدة السياسة وجريدة الأسبوع .

ولأوّل مرة تعرف الكلمة النقدية الصادقة والهادفة طريقها إلى صحافة عام ١٩١٩ إذ ابتدع المازنى - منطلقا من خلال مدرسة الديوان مع شكرى والعقاد - أسلوبًا جديدًا حارا عذبًا بلا سجع ولا حشو ولا مغالاة .. أسلوبًا جسورًا واعيا وبسيطا بدأ يثير

اللغط ويرسى دعائم مفاهيم طموحة ومتطورة فى حقلى النقد والسياسة معًا .

كان المازنى عند قوله فى « إبراهيم الكاتب » . « كل الأنهار تجرى إلى البحر والبحر ليس بملآن » .

فكان بحرًا تصب فيه أنهار الثقافات والفنون وروافد الآداب والعلوم والبلاغة مما قرأ واستوعب من تراثه العربى وتراث الغرب فانهمرت كتبه ومؤلفاته شاعرًا وروائيا وناقدًا ومترجما حتى بلغت مؤلفاته . أربعة وعشرين كتابًا فى مختلف الاتجاهات .

ولعلّ أهم هذه الكتب التى مازالت تتوالى طبعاتها حتى اليوم كتابه « حصاد الهشيم » الذى يدرس فى عدّة جامعات عالمية وبلغات مختلفة .

فى هذا الكتاب « حصاد الهشيم » تتجلى روح المازنى .. تلك الروح العالية المحلقة التى حطمت حدود الذات فى الشاعر وخرجت لرحابة أسلوب مبتكر تعانق فيه الصدق والصداقة الحميمة .. أسلوب لا يزال مدرسة منفردة بذاتها فى مدارس الأدب العربى فأسلوب المازنى كان نمطًا من الثورة والتجديد .. أسلوب من يخاطبك وجهًا لوجه على نسق من خفة الروح وطلاقة اللسان وعذوبة اللفظة وسماحة العطاء وعمق النظرة وإطالة البحث والعناء فى اختيار الكلمات .. مزودًا بقاموس خاص من لغته وثقافته وصراحته وسخريته الحادة مشحونًا بالقوة والنبض والشاعرية التى

أمدّته بتيار من الدفء والحركة جعلته أشبه بالقلب يتدفق بالدم الحار والحركة الدائبة داخل الجسم دون أن تسمع خفقاته .

ولقد أجمع النقاد على أن أسلوب المازنى كان حصيلة جهاد شاق طويل مع نفسه وفنه فقد ظهر المازنى فى ظلّ محاكاة القديم والنسج على المنوال فى الشعر والنثر معا فجاء ليتخلص من هذه الرواسب جميعًا واختار الأسلوب البسيط الفعال الصادق الذى ينساب مع إيقاع الأفكار ويشعّ بالموسيقى ويتألق بالفكر والحب وفى نفس الوقت يعتمد على منهج فى الأداء الفنى نابع من نظرة تقدمية ترفض السلفية وتعادى الزيف والتنميق .

هذا ما ينم عنه كتابه الكبير « حصاد الهشيم » الذى من خلاله نتعرف على المازنى رائدًا حقيقيا .. فهو يتناول فى كتابه حوالى ثلاثين موضوعا يتعرض فيها لشكسبير والعقاد والخيام وتوماس مور ومدينته الفاضلة وابن الرومى والمتنبى والشعر واللغة والخلود والطبيعة والجمال والفن والتصوير .. عدا صفحات من مذكراته وقصائده .

ويفتتح المازنى كتابه بمقدمة تشى بخفّة روحه وعمقها . وتكشف عن ولعه بالتأمل والسخرية فيقول : « أيها القارئ هذه مقالات مختلفة فى مواضع شتى كتبت فى أوقات متفاوتة ولست أدّعى لنفسى شيئًا من الابتكار والسداد ولا أنا أزعمها ستحدث انقلابًا فكريًا فى مصر ولكنى أقسم أنك تشترى عصارة عقلى وإن كان فجًا وكثرة

اطلاعى وهو واسع ومجهود أعصابى وهى سقيمة بأبخس الأثمان » .

ويستطرد المازنى فى حديثه الساخر مهونًا على القارئ عبء الكتاب ومهونًا على نفسه مشقة الكتاب فيقول : « ثم إنك تشترى كتابًا هبْه لا يعمر من رأسك خرابًا فهو يصلح أن تقطع به أوقات الفراغ أو هو على الأقل زينة على مكتبك .. ثم أنت بعد ذلك تستطيع أن تبيعه وتتْكبَ به غيرك .. أو تفككه وتلفلف فى ورقه المنثور ما يلف .. أو توقد به نارًا على طعام أو شراب أو غير ذلك .. أما أنا فمن يردّ لى ما أنفقت فيه ؟ من يعيد لى ما سلخت فى كتابته من ساعات العمر الذى لا يرجع منه فائت ولا يُرقع كالثياب أو يُرفى » .

ولا يغيب عن المازنى أنه شاعر وصاحب ديوان فيدرج فى كتابه تسع قصائد من شعره تتميز بالقوّة والجزالة والتمرد عدا قصيدة مختلفة الإيقاع تحمل أنفاس التجديد الباكرة .. وتسير على نسق من تحرر التفعيلة قبل أن تعلو نبرتها ويكثر اللغط حولها :

يقول المازنى فى قصيدته « لثمته » :

لم أكلمه ولكن نظرتى
سألته أين أمكْ ؟
أين أمك ؟
وهو يهذى لى على عادته

مذ توّلت كل يوم
كل يوم
فانثنى يبسط من وجهى الغضُونْ
ولعمرى كيف ذاك ؟
كيف ذاك ؟
قلت لما مسحت وجهى يداه
أترى تملك حيلة
أى حيلة
قال : ما تعنى بذا ياأبتاه ؟
قلت لا شىء أردته
ولثمته ..

ويفرد المازنى فصلاً فى « حصاد الهشيم » عن شكسبير متحدثًا فيه عن الشعر وعن تاجر البندقية التى ترجمها مطران عارضًا القصة منتبعا جذورها ناسبًا مصادرها إلى عدّة قصص جمع شكسبير شتاتها عن حكايات عديدة مقارنًا بين ما قدّمه شكسبير وبين ما كتبه السابقون فى نفس الموضوع مستشهدًا بنصوص من كتاب شكسبير من ترجمته هو لا عن ترجمة مطران .

ويعقد المازنى فصلاً آخر عن المدينة الفاضلة لمور وتوماس ولسن عارضا لكتاب « اليوتوبيا » مترجمًا ومحلّلا حكومتها التى تتألف من نفر يختارون لسنة واحدة كل منهم يمثل ثلاثين أسرة مكونة من مجتمع

عجيب لا يتعامل بالنقود ويحتقر الذهب ويعبد الله .

ويتعرض المازنى لصديقه العملاق العقاد .. فيكتب عن ديوانه « ترجمة شيطان » واصفًا إياه بأنه :

« عمل فنى تام قائم على فكرة أعمل الشاعر ذهنه فى جملتها ثم عرضها فى أسلوب فنى موسيقى أبدعه لها منتهزًا الفرصة فيربط الأدب بالسياسة باعتبار أن ديوان العقاد انعكاس لما انتاب الشاعر فى أواخر الحرب العالمية من الشك والغيظ اللذين شوّها كل حالات الوجود الإنسانى .. معتبرًا ترجمة شيطان دليلاً على انتهاء ركود اللغة قرونًا عدة .. تلك اللغة التى اتسمت للشعر القصصى على هذا النسق ولن تضيق عن غيره من فُنون الشعر بحمد الله وبفضل العقاد » .

وعندما يكتب المازنى عن عمر الخيام .. يتناوله بروح الناقد النافذ البصر والبصيرة بل يعود فيرتدى ثوب الشاعر حين يتناول ترجمات رباعيات الخيام التى كتبها رامى والسباعى والبستانى .. فيطرحها على القارئ .. ثم يقدم ترجمة جديدة له ينقلها مباشرة من مكتشف الرباعيات « فتزجرالد » منتهيًا من خلال ذلك إلى رأى شديد السخرية يقول فيه : « الخيام كأولاد البلد ممن كان همّهم أن يحيوا الليل بالشراب و الطرب والأنس فإذا تنفس الصبح لاذوا بمخادعهم وألقوا رءوسهم على الوسائد وناموا .. ومع هذا فهو رجل متشائم يئوس أعياه البحث فنكص وفرّ من الميدان » .

وهكذا يدين المازنى الخيام كشاعر سكب شعره حول الكأس .. ناسيًا حياة الخيام الأولى التى هى بحث واكتشاف وعمل فى الفلك والرياضيات والفلسفة هزّ فى حينه المجتمع المعاصر .. وأفزع رجلاً مثلا الغزالى حجة الإسلام .

ويفرد المازنى فصلين طويلين لابن الرومى والمتنبى .. ضاربًا فى أعماق نموّهما النفسى والاجتماعى .

فهو يستدل على طموح المتنبى وهو ابن سقاء بالكوفة المطعون فى نسبه وحسبه والذى فاخر الجميع عندما رثى أمه المجهولة الأب !

ولو لم تكونى بنت أكرمِ والدٍ
لكان أباك الضخمُ كونك لى أُما

واصفًا شعره بأنه يأخذك إلى ما يريد مباشرة ولا يطيل اللف والدوران ثم يقارن المتنبى بنابليون فكلاهما وضيع النشأة وكلاهما ينشد المجد الذى يصفه المتنبى بأنه الدوى فى مسامع الدنيا ويصفه نابليون بأنه الضجة العظيمة كلما اشتدت كلما طارت الشهرة .. ويقول المتنبى : « إن من يعرف الأيام مثله يُروِى رمحه فى الناس غير راحم » . ويقول نابليون إنه يجب على الرجال أن يكونوا كالسيف مضاءً وقوة ، وكلاهما كان يتعاطى كبر النفس وعلوّ الهمة .

ويترك المازنى المتنبى بعد أن أوسع له فصلًا كبيراً ، ليحنو على ابن الرومى لعله يفرح بأن شخصًا ما جاء فى القرن العشرين ليزيح ستائر الظلمات التى أسدلها عليه السابقون العرب ، فيصاحبه منذ

طفولته فقيرًا تعسًا منكورًا تلحقه اللعنة .. فيفقد أولاده الواحد تلو الآخر ، وينفر منه الناس حتى ليرى من يراه « منظرًا يدلّ على تغير حال » .

ويدرج المازنى ابن الرومى فى قائمة شعراء الغرب أكثر ما يكون فى قائمة الشعراء العرب .. فهو آرى الأصل - فارسى يونانى - يحمل صفات قومه ويطرق فى شعره موضوعات لم يألفها العرب فهو أقرب إلى شعراء الغرب فى صوره وإن بقى عربيا فى لغته .. وهو لم ينل من الشهرة حظًّا كأبى نواس والبحترى بل على رأى المازنى لم يستحق ما استحقه مركوب أبى القاسم من الشهرة !.

وكما يكيل له وللمتنبى الحب والثناء يكشف عن هناتها وسقطاتها معتمدا فى ذلك على فراسة ودُرْبة ووفرة استيعاب وهكذا .. كما قال ناقدو المازنى ومعاصروه :

« خلق أسلوبًا حميًا لتفكير حميم وشق للكتّاب الشبان من بعده طريق التحرر من القوالب النثرية والقرب من اللغة الطبيعية .. ونبههم بالمثال العلمى إلى أن الأسلوب شىء يخلقه فنان يجىء ويستفاد بالدرس والتجربة ولا يستفاد بالتقليد » .

فى صحبة الكتاب

« نعم الذخيرة والجليس والعمدة والأنيس على حدّ قول (الجاحظ) : ونعم القرين والدخيل ونعم الوزير والنزيل » .

« ومن لك بمؤنس لا ينام إلّا بنومك ولا ينطق إلّا بما تهوى آمن من الأرض وأكتم للسرّ من صاحب السر .

« وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة » .

« ولا أعلم جارًا أبرّ ولا خليطًا أنصف ولا رفيقًا أطوع ولا معلّما أخضع ولا صاحبًا أظهر كفاية ولا أقل إملالًا وإبراما ولا أحفل أخلاقًا ولا أقل خلافًا وإجراما ولا أزهد فى جدال ولا أكفّ عن قتال .. من كتاب » .

وعندما قال المتنبى :

أعزّ مكانٍ فى الدُّنا سرجُ سابحٍ
وخير جليسٍ فى الزمانِ كتابُ

كان قد خبر الناس والأصدقاء وسَبَر أغوار الأحياء فلم يجد له صاحبًا أمينًا وخلًا وفياً حنونًا .. لا يخذله ولا يفرط فيه ولا يشى

بسرّه ويكشف عورته ويهتك سريرته إلاّ ذلك الصاحب الصموت الناطق الأخرس وهو الكتاب .

وفى رحاب رمضان .. نهاره الضامر الطويل وليله الساجد القصير .. يكون الكتاب نعم السند والجلد تستعين به على تجرد الجسد وتحتال به على مكابدة الظمأ والسغب .

يقيك لغو الكلام .. ويشفّ بروحك وجسدك فى لحظات الصيام .

ويصون لسانك من الخوض واللسان عورة .

ويطوى لك الوقت طيا .

يسافر بك حيث لا يحلّ لك - وأنت على سفر - إفطار . وإنما هى رحلة تحلّق فيها على جناح السطور عبر الآفاق .. وتسوح بك فى مختلف السياحات والأشواق .

وعندما قال شوقى :

أنا من بدّل بالكتب الصحابا
لم أجد لى وافيًا إلاّ الكتابا
صحبة لم أشكُ منها ريبةً
ووِدادًا لم يُكلفنى العتابا

أراد أمير الشعراء أن يقول إنه استغنى عن الصحاب بالكتاب فقال العكس .

وهو خطأ وارد وقع فيه شعراء كبار قبل شوقى .. أراد أن يقول

إنه بدّل الصحب بالكتب أى أنه آثر صحبة الكتاب على رفقة الصديق .. والصواب أن يقول : أنا من بدّل بالصحب الكتابا . ولو أن مجمع اللغة العربية أجاز ذلك الإبدال أخيرا .

ذلك هو الكتاب رفيق النهار ونديم الليل خير بديل عن خير خليل يغنيك عن طلب الصديق ويعينك على مشقة الطريق .

لا يريك من أمره ريبًا ولا يكبدك ملامة أو عتبا تتلوه قرآنًا عجبا .. إن خلّيت إلى محراب الكلمات العلياوعرّجت على شجرة المنتهى .

وترتّله ترتيلاً عذبًا . إن تعشقت جلال الموسيقى وسرّ التراكيب وأنغام الحروف .. وأسرار الإيقاعات ، إذا استعنت به أغناك عن لغو الغناء المكرر بأصوات الناعبين والناعبات من المطربين والمطربات ، وإن اشتقت إلى أحسن القصص وفصل القول عما تسمعه وتقرؤه وتراه من هراء وهزل .

ذلك الكتاب .. لا ريب فيه يربو على كل الكتب ويزهو .. لا يأتيه الباطل من خلف ولا أمام .

ما هو بالشعر .. وما هو بشاعر ولا ينبغى له . إنما هو إعجاز مبين فريد لا طاقة للشعر والشعراء به ولا سبيل إلى أن يتباروا فيه ولا للأقلام أن تنسج على منواله .

لأنه سبق بذاته لا يلحق به فمن أين يجوز السباق ؟ ولمن يكون قصب الفوز ؟ ولا طاقة لإنس أو جان أن يأتوا بمثله ولو نفذوا من

أقطار السموات والأرض ولا ينفذون إلاّ بسلطان .

ذلك هو الكتاب : سيد الكتب وعمدتها وعمادها وعدّتها وأعلاها وذروتها .

وهو خير مثال لقارئ .. وأعلى مقام لواصل وأخصب حصاد لحاصد وأشرف قصد لقاصد .. وأنجع دواء لعليل .. وأعزّ نجوى لاثنين .. وأطيب خلوة لكل وارد .

إن الحديث تضر القوم خلوتُه
حتى يلجّ به عيٌّ وإكثارُ

أما ما عداه .. من كتب فهى على قدر ما بلغت وارتقت كالنجوم إنما تدور حوله وتهيم فى فلكه وتلمع فى السفح من قمته لشعراء هاموا حبا فيه وعشقوا دروب خوافيه ورسب فى أعماقهم إيقاعه المبين وإعجازه المكين فتفجر ينبوع القول على ألسنتهم نابعة منه وأغنى كل موهوب فيهم عن صنعة العروض وضجر القوافى .. بما حفلت آياته من فطرة الموسيقى وإعجاز الإيقاع وبلاغة الإبداع .

فى رحاب هذا الكتاب .. كانت نزهة القراءات والمطالعة لسنوات متعاقبة تزودت بها على جحود تلك السنوات وظلام لياليها .. وغنيت بها عن تقلب الأهواء وانقلاب حال الأصدقاء وقويت بها على المكابدة والاستعلاء عن المكاره والتكالب على

صراع الأحياء وإنفاق الطاقة فى غير عائد .

وملأت بها وحدة القلب والنفس وتجلدت على الزمان العتى حتى تساقطت من أمام عينى السحب السوداء ، وأشرقت فى الأفق ربة الضياء .

وأدبر كل ضيق وانكشفت كل غمة .

وكان كلما نظر نظرة فى النجوم قال إنى سقيم وكلما أحزنه قولهم .. استمسك بالعروة الوثقى لأن العزّة لله جميعا .

سنوات توالت تباعًا .. كأنها مرّ السحاب كان رفيقى وصاحبى وإمامى .

ذلك هو الكتاب المبين ألوذ به وقد انقبض الصدر ونزل الضرّ فينشرح الصدر ولا يمسّنى الضر .

وأجلس إليه .. فى مقعد طالب العلم والمعرفة فإذا به خير معلّم وهاد .

وكلما ازددت فى دروبه سياحة وفى بحاره سباحة عدت وقد ازددت شعورًا بالجهالة وإحساسًا بالضآلة .. فأقهر النفس وألوم العقل .. وأقول لها : ما أشد جهلكما على قدر ما ادعيتما المعرفة والعلم . وأين أنتما .. من هذا الفيض العميم وذلك النبع الحميم .

ألا تعلمان أنه فوق كل ذى علم عليم ؟

وأنه مهما أوتيتما من معرفة وفن .. واغترفتما من البحر لنفد البحر .. وما نفدت تلك الكلمات !

الجاحظ
كنز العربية

كان تقدميا تحت عباءته العربية تقرب إلى العامة لأنه نبع منهم فقيرًا يبيع الخبز والسمك . واستمال إعجاب الخاصة لأنه كرّم نفسه فلم ينزلها غير منزلها ولم يتهالك على أبواب الملوك .

وكان موسوعيا فى ثقافاته فنقل عن الفلاسفة والعلماء والأطباء واستوعب أرسطو وترجمات الفرس والهند والإغريق وبذّ أساتذته فى المربد والبصرة من الأعلام كالأصمعى وأبى عبيدة وشيخه فى عالم الكلام أبو إسحق النظّام .. وكان متمردًا جسورًا فهجر منصب ديوان الرسائل بعد ثلاثة أيام فقط حين تصدّى له « سهل ابن هارون » وزير المأمون وقد أكل قلبه الحسد وصاح ليستعدى الكتاب عليه فقال : لو ثبت الجاحظ فى هذا الديوان أفل نجم الكتاب وترك الجاحظ المنصب هربًا من قيود الوظيفة ودس الكائدين ليعلو نجمه ويأفل نجم الآخرين .

اهتم به الشرق والغرب معًا .. فاعتبره « ابن خلدون » أحد

الأركان الأربعة من أصحاب الكتب الأصل والباقى فتبع وفروع لها وعنى به المستشرق فلوتين محقق « البخلاء » ونشره فى « ليدن » -لذلك أطلقوا عليه لقب .. كنز العربية وأعلن « يونس حبيب » عشية وفاته « أنه وحيد عصره » .

إنه أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ .

حطت عليه المصائب من كل فجّ .. الدمامة وجحوظ العينين وقصر القامة والفلج « الشلل » وداء النقرس .. والعمر الطويل .

جاوز المئة ولم تنطفئ شعلة الفكر فيه ولم يكل البصر من دوام القراءة والتصنيف حتى سقطت فوقه مجلدات الكتب والدفاتر والقماطير ذات ليلة وهو على حاله من زوال العافية وقعود المرض فصرعته .

وتكاثروا عليه حيًّا .. فرموه بالزندقة وشاعت قولة « أبو دؤاد » : نثق بظرفه ولا نثق بدينه . بل واتهمه « أبو منصور البغدادى » بالجهل والضلالة وجرده من الروح الإنسانية .

وتناولوه على أسنة التجريح واللمز فشبهوه بالقرد تارة وبالخنزير أخرى وبالشيطان ثالثة وراج فيه هذا البيت :

لو يمسخ الخنزير مسخًا ثانيا
ما كان إلّا دون قُبْح الجاحظِ

وهو يمتصّ سخرية الناس بجرعة سخرية مضادة ويروى رمحه غير راحم حتى فى أعماق نفسه .. فيقول لصاحب البيت السابق : لا فضّ فوك . أو يسبق الناس فى التندّر من قبحه فيصف عينيه الجاحظتين « ببطن حوت مبتور » ويروى عن نفسه الروايات فيقول :

« إن عجوزًا شمطاء قادته إلى صائغ يهودى وقالت له : مثل هذا وانصرفت فسأل الصائغ عن قولها فأخبره أنها جاءته بخاتم لينقش عليه صورة شيطان وأجابها بأنه لم ير الشيطان قط .. فجاءت به .. وقالت ما قالت وانصرفت ، ولعلّ هذا الأسلوب الموجع فى السخرية كان بمثابة درع واقية للجاحظ ضدّ سهام الساخرين . وحيلة نفسية منه لدرءِ الأذى . وهو فى باب علم النفس إعلاء لعقدة القبح وتفوّق عليها فانتقم لنفسه من القبح بوسامة اللفظ . ومن قصر القامة بطول الباع فى المعرفة . ومن جحوظ العينين بتسليطهما على أعماق البشر وتصويرها أدق تصوير ..

وانتصر على أعدائه وحاسديه فى هذه الفترة الصاخبة الزاهرة بالتيارات السياسية والأدبية ومدارس الكلام والفلسفة والمجون والغناء والترف والمكائد .. وذلك بالعكوف على العمل والانكباب على القراءة والتأليف وإيثار الكتاب لأنه عنده : « نعم الذخيرة والعقدة والجليس والعمدة ونعم الأنيس ساعة الوحدة ونعم القرين

والدخيل والزميل » .

ولقد استفاد الجاحظ من كل شيء حوله .. حتى من حافديّه فأنفذ في أعماقهم حدقة الفنان والمحلل وصوّر ما فيها تصويرًا دقيقًا بليغًا وقرر ألّا تلهيه صراعات مجتمعه عن مسيرته الفنية ولا يتوقف عند حاقد أو حاسد واكتفى بعقوبتهم بذنبهم : « لو ملكت عقوبة الحاسد لم أعاقبه بأكثر مما عاقبه الله بإلزام الهموم قلبه وتسليطها عليه فزاده الله حسدًا وأقام عليه أبدا » .

وقد اختلفت الروايات في عدد كتب الجاحظ فأحصوها ما بين مائة وخمسين وثلاثمائة وخمسين كتابًا اعترف طه حسين أكثر الأدباء ولعًا بالجاحظ إن لم يكن تشبهًا به بأنه تمنى لو نال رسالته فيه بدلًا من « أبي العلاء » وأشهر هذه الكتب « الحيوان » الذى تفوق فيه على سابقيه ولاحقيه ممن ولجوا هذا الباب أمثال ديمقراطيس وأرسطو الذى ترجمه ابن البطريق وحيوان الدميرى وكتاب الإبل للسجستاني والخيل لابن الكلْبي والوحوش لأستاذه الأصمعي وكتاب الطير للنضر بن شميل .. وعديد من كنوز العربية فاقها الجاحظ ومن أشهر كتبه أيضًا « البيان والتبيين » والتربيع والتدوير والمحاسن والأضداد وكتاب المعلّمين والجوارى والنساء والبلدان والجد والهزل والحسد والعداوة .. وأخيرًا « البخلاء » الذى يأتي واسطة العقد في مصنفات الجاحظ فهو أكبرها حظًا من السيرورة والذيوع وهو من « أجود الكتب ويحق للعربية أن تفخر به » كما

وصفه عميد الأدب العربى حيث سجل فيه بأسلوب موجز برغم اتهامه بالإطالة صورًا من حياة البخلاء وطباعهم ونوادرهم وحججهم فحوَّرها ودورها وقلبها على كل وجه فبلغ فى ذلك الغاية حتى لكأنهم أحياء يجادلونك ويتحركون أمام عينيك فوق الورق فى أسلوب فريد ليس بالهيِّن الليِّن بل عميق المذهب . فأنت منه فى متاعين : متاع اللفظ ، ونقاء العنصر ، ومتاع الفكر ، وعمق المعنى « يعلم العقل أوّلاً والأدب ثانيًا » .

هذا الكتاب « البخلاء » الذى مرَّ عليه أكثر من ألف ومائة عام كتبه الجاحظ فى رعشة الهرم ومضض الداء إبان شيخوخة معقدة فهو على حد وصفه : « ذو شق مائل ولعاب سائل وفرج بائل وعقل حائل » لم يفقد جدته رغم الأعوام الألف ومازالت طبعاته تتوالى عامًا بعد عام .

ولعمرى .. لو عاش أبو عمرو بن بحر الجاحظ . ليرى واحدًا من فلذات أكباده وهو البخلاء يروج ويبعث من جديد فى عصر الصاروخ والذرة لا عصر الناقة والبعير .. لأيقن أن ثمار قولته الذائعة أتت أكلها بعد حين :

« ولكننى أخذت بآداب أهل دعوتى وملّتى ولغتى وجزيرتى وهم العرب . لأن العرب أنطق ولغتها أوسع ولفظها أدلّ والبديهة مقصورة عليها » .

ولأيقن كذلك أنه لم يكذب قط حين وصف نفسه فقال :

لئنْ قــدمت قبلى رجــال فـطالمـا
مشيت عـلى رسْـلى فكنتُ المقــدمـا

تاج العروس
الحاوى لتهذيب النفوس

وهب نفسه لله .. فوهبه الله وأعطاه وأفاض عليه وأغدق .. فرقّ قلبه وأشرق وشفّت روحه فطار على جناح الصفاء وحلّق مابين الأرض والسماء .

ينهل من ينابيع الحكمة حتى جمع بين رئاسة علوم الشريعة وعلوم الحقيقة ..

بل رأس علماء التشريع والتحقيق معًا .. فكان عمدة الواصلين .. وإمام السالكين .

وكان فتح الله عليه مبينا ..

دخل على أستاذه الشيخ وفى قلبه غرض وبه مخاصمة وتحفز .. فتلقاه الأستاذ الشيخ قائمًا هاشًا مقبلًا عليه .. فانحلّت عقدة لسانه وانفتح قلب التلميذ الفتى فنطق قائلًا لأستاذه الشيخ :

أنا والله أحبّك ..

فقال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى :

أحبَّك الله كما أحببتنى .

ونادى به : الزم .. فوالله لو لزمت لتكونن مفتياً فى المذهبين الظاهر وحقائق الباطن ..

فلازمه .. وتحققت النبوءة .

أما الأستاذ الشيخ فهو أبو العباس المرسى الإمام القطب الذى قال فيه الشاذلى : « إنه أعلم بطرق السماء منه بطرق الأرض » .

وأما التلميذ الفتى فهو ابن عطاء الله السكندرى .

وأما القصة فيرويها فى كتابه « لطائف المنن » ويحكى فيها كيفية لقائه بأستاذه الشيخ .. وملازمته إياه هو وسائر كبار العلماء والعارفين فى عصره فيقول :

« كنت لأمره من المنكرين وعليه من المعترضين .. لا لشىء سمعته منه .. ولكن جرت المخاصمة بينى وبين أصحابه فقلت فيهم قولاً عظيماً .

ثم قلت فى نفسى :

دعنى أذهب أنظر هذا الرجل فصاحب الحق له أمارات لا يخفى شأنه فأتيت مجلسه .. فوجدته يتكلم فى مسألة درجات السالكين - إلى الله - فقلت : إن الرجل إنما يغترف من بحر إلهى ومدد ربّانى فأذهب الله ما كان عندى .

وأتيت إليه . فاستؤذن لى عليه فلما دخلت قام وتلقانى ببشاشة وإقبال واستصغرت نفسى أن أكون أهلاً لذلك .. فكان أول ماقلت له :

- ياسيدى أنا والله أحبك ..

فقال : أحبك الله كما أحببتنى .

كانت تلك البداية حيث لازم الفتى أستاذه وكان له الفضل فى نشر آثاره وبيان جوانب شخصه وشرح مؤلفاته . بجانب مانشره ابن عطاء الله من كتب ومؤلفات أثْرت المكتبة الإسلامية .. من أشهرها :

« كتاب الحكم » و « لطائف المنن » و « التنوير فى إسقاط التدبير » و « مفتاح الفلاح » و « القول المجرد فى الاسم المفرد » و « تاج العروس » .

يتضمن كتاب « تاج العروس » ألوانًا من فنّ الحكم والمواعظ وروائع الكلم وبلاغة التعبير والإشارات مايجعله يشفى غليل القارئ المحب لهذا النوع من الأقوال ويأخذ بيده إلى سبيل الهداية .. ويحبب إليه سيرة الواصلين والمتصوفين من أهل الوجد والعلم والتطلع وعشاق الكتاب والسيرة .. بما يخصصه من فصول فى فضل العبادات والإخلاص والمحبة والعمل ودرء المعاصى والذاكرين الله والغافلين عن الذكر والإيمان .

ولا يكتفى بتلك الفصول الفياضة وإنما يردفها بخلاصة تجارب ونصائح تضمن لقارئها الاستمرار على درب العبادة دون أن تصدأ مرآة جوانحه ، ويختمها بنجاوى علوية الإيقاع كأنها أنفاس الشعر الحارة الصادقة .. يبتهل بها الحبيب إلى محبوبه الأكبر .

فضل الصلاة .. وحلاوة الصحبة

أوّل هذه الفصول مايذكره ابن عطاء الله السكندرى فى فضل الصلاة على النبى والتودّد إلى الخلق دون التودد إلى الحق الذى هو الخالق فيقول :

« كذلك من فاته كثرة الصيام والقيام فعليه أن يشغل نفسه بالصلاة على رسول الله ﷺ فإنك لو فعلت فى جميع عمرك كل طاعة ثم صلّى الله عليك صلاة رجحت تلك الصلاة الواحدة على كل ماعملته فى عمرك كله من جميع الطاعات .

لأنك تصلى على قدر وسعك وهو يصلّى حسب ربوبيته .. »

وقد أمر الله بالصلاة والسلام عليه فى كتابه العزيز فقال تعالى :

﴿ إن الله وملائكته يصلّون على النبى ، يأيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلموا تسليما ﴾ .

وإذا كانت الصلاة على الرسول تزن هذا القدر ولها هذا المقام والثواب فما بالك بفضل التودّد إلى الله تعالى وهو الذى أرسل الرسل وخلق الأرض والسماء وما بينهما وعليهما .

وما هو أجر هذا التودد وما السبيل إليه ؟

يقول ابن عطاء الله :

« ياعبد الله ماأكثر توددك للخلق وتقربك إليهم وما أقل توددك للحق تعالى » .

ولاعبادة تتودد بها إلى الله أسهل عليك من ذكر الله .. مخلصًا لأن ذلك فى إمكان البشر جميعًا .

الشيخ الكبير والمريض الطريح والعامل المشتغل بأعماله والكسول المتمدد على فراشه .

فإذا قبل كيف الصحبة لله .. بعد أن تذوق حلاوة الصلاة والتودد فاعلم أن صحبة كل شيء على حسبه .

فصحبة الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه والتوكل عليه فى جميع الشئون .

وليس من واجب الصحبة وجوب الرؤية والمشاهدة ..

وإنما هناك سبل ودلائل أخرى تقوم مقام المشاهدة .

فمن صحب النعم بالشكر وصحب البلايا بالصبر وصحب الأوامر بالتعظيم والامتثال وصحب القرآن بالتفكير .. من فعل ذلك فقد صحب الله عزّ وجل فإذا تمكنت الصحبة صارت خلّة .

قلب العارف كمرآة العروس الحسناء

ويسترسل ابن عطاء الله السكندرى فى فصول كتابه فيذكر فصل الإخلاص فى الأعمال والعبادات ويحذّر من الرياء وحبّ

الظهور والغرور مشبهًا العمل الخالص النقى بالياقوتة صغُر حجمها وغلا ثمنها .. ومشبهًا الأرواح الطاهرة بالثياب البيضاء النقية يدنسها رشاش النفوس ، محصيًا بعد ذلك نعم الله على عباده وأياديه على مخلوقاته .. فهو مصدر كل النعم وهو الوهاب ، عطاياه بلا حدود .

﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ .

ومن أجلّ النعم التى يضرب بها المثل ابن عطاء الله والتى كساها الله وخلعها على الإنسان حتى ليصفها بالحُلّة . فهناك حلّة المعرفة وحلّة التوحيد وحلّة المحبة والإيمان وحلّة الإسلام والكرامة وهى خلع خلعها الله على عباده وألبسها إياهم وسبيل الحفاظ عليها لتظلّ زاهية بيضاء يتحلّى بها صاحبها هو عدم تلطيخها بالمعاصى أو تلويثها ببقع الخطايا أو تمزيقها بالشهوات بل الحفاظ عليها بالشكر والطاعة والعمل والحمد حتى يزيد الله لمن شكر ويكيل العذاب لمن كفر .

ويضرب ابن عطاء بذلك مثلاً غريبًا وجميلاً على صاحب المعصية فيشبهه بالجعران « الجعل » الذى لايعيش إلاّ فى الروث والقمامات فإذا قرب إليه الورد مات من رائحته .. بدلاً من أن تنتعش رئتاه بها أو هو كالفراش لايزال يحوم حول النار حتى يزج بنفسه فيها فتحرقه لأن المعصية خروج عن الطاعة وجنوح عن الصواب وخيانة لله فى أوامره ، ومن خان هان مقامه عند ربه ، ومن تهاون فى

فعلُ الصغائر جرّه ذلك إلى الوقوع فى الكبائر .

ولاينزلق الإنسان إلى هاوية المعصية إلاّ إذا غفل عن ذكر ربه .. فيقع غبار المعاصى على إيمانه ويلطخ الثياب البيض بدنس المخالفة .. ذلك .. لأن منزلة الإنسان عند ربه منزلة عالية ولكنها تسقط بارتكاب المعصية لأن الطاعة صلة والمعصية قطيعة .

ويقول ابن عطاء الله شارحًا ذلك المعنى ومبررًا إياه :

« ولو كنت ذا قيمة عند الله لما رماك لغيره .. أرأيت الثمرة تحافظ عليها فإذا أكلتها ألقيت النواة فى الطريق ولاتبالى فى أى مكان وقعت ، فحافظت على الثمرة لقيمتها وتركت النواة لحقارتها فكذلك العاصى لاقيمة له عند الله » .

ويتحدث ابن عطاء الله عن الغافلين عن الله . وعن أهل المعرفة ومعاشرة الأخيار وتجنب المعاصى والأشرار ويبين عواقب الكبر والتعالى على الناس داعيًا المسلم إلى محاسبة نفسه ومراقبتها لأنه مثل الشجرة تسقى بماء الطاعة فإذا جفّ القلب سقطت ثمراته وهو مثل المرآة فقلب العاجز كمرآة العجوز الفانية ضعفت همّتها أن تجلوها وأهملتها فلا تنظر فيها حتى انطمس وجهها .

أما قلب العارف كمرآة العروس الحسناء كل يوم تنظفها وتنظر فيها فلا تزال مصقولة لامعة .. وهما حالان من أحوال القلب البشرى ينطبق عليهما قول الرسول ﷺ :

« لقلب ابن آدم أشدّ تقلّبًا من القدْر على النار إذا غلت » .

ويلخص ابن عطاء الله الوسائل التى تجلو هذه المرآة لتظل مصقولة لامعة .. وتسقى تلك الشجرة لتظل يانعة خضراء بهذه الخصال الأربع :

- كثرة الذكر وتلاوة القرآن .
- لزوم الصمت وقلة الكلام .
- الخلوة لمناجاة الملك العلام .
- قلّة الشراب والطعام .

ويختتم ابن عطاء الله السكندرى .. كتابه « تاج العروس » بمناجاة شعرية عذبة الترانيم .. دعاء صادق يكاد يكون نغمًا صوفيًّا أنشده على أوتار روحه الشفّافة المضيئة بنور السماء نقتطف منه هذه السطور :

- « إلهى .. أنا الفقير فى غناى فكيف لا أكون فقيرًا فى فقرى » .

- « أنا الجهول فى علمى .. فكيف لا أكون جهولاً فى جهلى » .

- « إلهى .. عميت عين لاتزال عليها رقيبا .. وخسرت صفقة عبد لم تجعل من حبك نصيبا » .

- « إلهى .. علمنى من علمك المخزون وصنى بسرِّ اسمك المصون .. بك أستنصر فانصرنى .. وعليك أتوكل فلا تكلنى ..

وإياك أسأل فلا تحرمنى .. وفى فضلك أرغب فلا تجنبنى ولجنابك أنتسب فلا تبعدنى وببابك أقف فلا تطردنى ماذا وَجَدَ من فَقَدَك ؟ وما الذى فَقَدَ من وجَدَك » .

المجددون فى الإسلام

يقول شيخ الأمناء الأستاذ أمين الخولى فى مقدمة كتابه « المجددون فى الإسلام » تحت عنوان خطة وهدف أنه أقام كتا هذا على أساس كتابى :

« التنبئة بمن يبعث الله على رأس كل مائة – لجلال الدين السيوطى »

و « بغية المقتدين ومنحة المجددين على تحفة المهتدين للمراغى الجرجاوى » .

وهما كتابان متكاملان مخطوطان بدار الكتب .

الأول .. كتبه السيوطى فى أوائل القرن العاشر عرض فيه للمجددين حتى عصره .

والثانى .. كتبه المراغى فى القرن الرابع عشر فأكمل مابدأ السيوطى وعرض للمجددين فى الإسلام إلى مابعد عصر السيوطى .

ويواصل شيخ الأمناء أمين الخولى شرح خطة الكتاب وهدفه من

التجديد بقوله :

« فكانت الخطة أن أقدم مخطوط السيوطى المسمّى « التنبئة » ثم أكمله فيما بعد زمن السيوطى من كتاب المراغى « بغية المقتدين » مستهدفًا بذلك هدفين :

« أن أدوّن قول القدماء بعبارتهم فى فكرة تجديد الدين على رأس كل مائة وفقًا للحديث المروى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدّد لها أمر دينها » .

والثانى أن أكمل هذه الصورة التاريخية بترجمة من سمّوهم من المجددين ترجمة تقصد إلى بيان أعمالهم وأفكارهم فى التجديد خلال الأربعة عشر قرنًا التى عاشها الاسلام حتى اليوم » .

عمر بن عبد العزيز
أوّل المجددين

أما المجدّد الدينى الأوّل فهو عمر بن عبد العزيز بن مروان الذى طالت ولايته على مصر أكثر من عشرين عامًا اشتهر خلالها بالعدل والزهد والتقوى والإيمان .

وتنقسم حياة عمر إلى دورين :

أحدهما قبل الخلافة والولاية حيث حياته حياة ترف وتنعم

ورفاهية ورغد – حتى ليقدم على المدينة ومتاعه محمول على خمسين حملاً لشدّة ترفه وكثرة متاعه .

والدور الثانى فى حياة عمر .. هو مابعد الخلافة حيث تطورت شخصيته تطورًا كبيرًا أبسط مظاهره قوله يصف نفسه بأنه لما وصل إلى الخلافة ولم يكن شىء فى الدنيا فوقها يتمناه .. فلما نالها تاقت نفسه إلى ماعند الله فى الآخرة وذلك مالا ينال إلّا بترك الدنيا .

ولقد سارت سيرة عمر بن عبد العزيز وهو فى النسب ينتسب إلى عمر بن الخطاب .. بين الناس كما سارت سيرة جدّه من قبل . قوّة فى الحق وثورة على الباطل وحرية فى الرأى وجسارة فى العمل فهو لفرط مسئوليته وثقل حمل أمانة الأمة يبكى فى مصلّاه فتسأله زوجته فيقول :

« إنى تقلّدت من أمر أمة محمد ﷺ أسودها وأحمرها فتفكرت فى الفقير الجائع والمريض الضائع والعارى المجهود والمظلوم المقهور والغريب الأسير والشيخ الكبير وذوى العيال الكثير والمال القليل وأشباههم فى أقطار الأرض فعلمت أن ربى سائلى عنهم يوم القيامة فخشيت ألّا تثبت لى حجّة فبكيت » .

ولقد ضرب عمر أروع المثل فى العدل الاجتماعى والمساواة ورفض الرق والقهر فهو يوجه المال لحاجة الناس ولايصرفه فى ظواهر دينية مثال ذلك أن كتبت الحجبة إليه أن يأمر للبيت بكسوة

كما يفعل من قبله فيكتب إليهم قائلاً :

« إنى رأيت أن أجعل ذلك فى أكباد جائعة فإنه أولى من ذلك البيت » .

الشافعى المجدد الثانى

كان الشافعى عالمًا متحررًا سبّاقًا .. سبق عصره بمعنى الكلمة آمن بالعلم والاجتهاد والمثابرة والفتح كسبيل إلى تدعيم الدين وتفسيره للناس بما يزيدهم إيمانا وعملاً به .. فهو يجلّ العلم وينادى به ويقدمه على العبادة كصلاة النافلة كما يقول وهو يحبّ الحقيقة ويؤثرها على كل ماعداها من غنم أو غرم .. وهو يؤمن بالحوار المفتوح والجدل العقلى الذى يؤدى إلى معرفة الحق .. دون حجر على رأى أو استبداد لفكرة وفى هذا المعنى يقول : « ماناظرت أحدًا قط على الغلبة » .

ومن قوله أيضًا : « من أراد الدنيا فعليه بالعلم » .

ومن معالم منهج التجديد عند الشافعى حرصه الشديد على احترام العقل والتجربة وحرية التفكير .. يقول لتلاميذه :

« إذا ذكرت لكم مالم تقبله عقولكم فلا تقبلوه فإن العقل مضطر إلى قبول الحق » .

ومن ألمع وأسطع مناهج التجديد والتفكير المستنير عند الشافعى

إيمانه بالتطور الفكرى وإعادة النظر فيما يكتب ويؤلف من أعمال دون قبولها على علّتها .

وقد كتب رسالته الشهيرة التى يعدّ بها واضع أصول الفقه الإسلامى حتى ليعتبره المؤرخون والنقاد القدامى نظير « أرسطو » واضع المنطق اليونانى . كتب هذه الرسالة ببغداد مرة ثم أعاد كتابتها بعد سنوات فى مصر مرة أخرى .

ولقد تعددت جوانب الشافعى الشخصية فهو عالم جليل فى اللغة والفقه والتاريخ والتراجم وفن الشعر .

وهو رياضى بارع يعشق الرماية . وهو فنان وسيم الصوت إذا قرأ ورتّل وأنشد وهو شاعر يجيد قول الشعر ويطرق فيه أبواب الحكمة والمحبّة وهو يعقد فى كتابه الشهير « الأم » فى الجزء السادس منه فصلاً عن « شهادة الشعراء » تنم عن فهم عميق وحبّ أثير للشعر مادام نابعًا عن صدق وأصالة .

ومن مأثور شعره قوله متشوقًا لمصر فى أواخر حياته وكأنما يتنبأ بالنهاية :

أخى أرى نفسى تشوقُ إلى مصرِ
ومن دونها أرض المفاوزِ والقَفْرِ
فوالله ما أدرى أللفوزِ والغنى
أساق إليها .. أم أساق إلى قبرى ؟

ابن سريج .. البازى الأشهب

أما المجدد الثالث فهو « العباس أحمد بن سريج » أكبروا من شأنه حتى لقّبوه بالشافعى الصغير له من المؤلفات المئات وهو يقف بذلك على رأس المائة الثالثة من المجددين .

ولقد تتلمذ ابن سريج على الشافعى ونهل من منهله وأجاد الأصول والفروع والحساب وبزغ فى الكلام والجدل وعلوم اللغة حتى تولّى القضاء فى صدر شبابه ويفاعته لمتانة علمه وخلقه ولقد امتاز ابن سريج عدا ذلك بقوة فى الخلق وترفّع عن المناصب ونصرة للحق حتى ليدين الوزير فى مجلس وعيد . ويظل ابن سريج على ماهو عليه من تفرغ للدرس والعمل والدين وزهد فى الدنيا ونزوع إلى التصوف فى شيخوخته وبدعوة الوزير له لولاية القضاء فيرفض .. ويلحف عليه ويهدّده بأن يسمّره على بابه ويرفض أيضًا ألّا يرهبه الوعيد ولا يقوى الوزير لعظم مكانة ابن سريج بين الناس أن ينفذ وعيده أو يمسّه بسوء .

أبو سهل الصعلوكى

ويأتى على رأس المائة الرابعة المجدّد الرابع : أبو سهل الصعلوكى طاف واغترب ودرس وعكف وكان فقيهًا عالمًا متكلمًا صوفيًّا وكان فوق ذلك أديبًا شاعرًا كاتبًا زاهدًا عظيمًا يمثله قوله : « ماعقدت على شيء قط وما كان لى قفل مفتاح ما .. ولا حررت على فضة ولا ذهب » .

وكان أبو سهل جوادًا كريم النفس يؤثر غيره على خصاصته حتى لقد وهب جبّته لفقير مقرور يرتعد من برد الشتاء وهو لايملك غيرها .. ثم يضطر حين يخرج للقاء وفد من الفقهاء والوجهاء وكبراء القوم أن يلبس جبّة النساء غير عابئ وهو إمام البلد وشيخ علمائها .

أبو الحسن الأشعرى إمام المتكلمين

ويأتى على رأس المائة الخامسة أبو الحسن الأشعرى المجدد المتقدم الذى ينتهى نسبه إلى الصحابى الجليل أبى موسى الأشعرى .

وهو من وصفوه بقولهم :

« شيخ طريقة أهل السنّة وإمام المتكلمين والساعى فى حفظ عقائد المسلمين » .

ولقد شغل الأشعرى فى الميدان الاعتقادى الإسلامى - كما يقول المؤلف - حيزًا ضخمًا .. ذلك بما امتاز به من جرأة فى القول وجسارة فى الرأى وتطور فى التفكير ومناقشة حرّة للقضايا الإسلامية التى احتدم حولها الجدل فى هذه الفترة الساخنة من القرن الرابع الهجرى .

تلك الفترة التى كثرت فيها الفرق الإسلامية وتشعبت وذاع صيتها كالمعتزلة والجهمية وغيرهما .

ولقد تميّز الأشعرى عن كل هذه الفرق بأنه توسط بين كل الأطراف المتضادة دون تعصّب أو غلبة لأحد على الآخر .. منتهيًا إلى قوله الشهير :

« أشهد على أنى لا أكفر أحدًا من أهل هذه القبلة لأن الكل يشيرون إلى معبود واحد وإنما هذا كلّه اختلاف فى العبارات » .

الباقلانى .. لسان الأمة وسفيرها

وينتهى الكتاب إلى المجدد السادس الذى جاء على رأس المائة السادسة وهو الشيخ العلامة الجليل الباقلانى إمام وقته وشيخ السنّة

ولسان الأمة وإليه انتهت رياسة المالكية فى زمنه وساهم فى الحياة العملية حوله فكان يوفد فى سفارات سياسية إلى الرومان والقسطنطينية غير مرة لذكائه وعلمه ولباقته .

ولقد كان اختيار الباقلانى لهذه المهمات السياسية والبعثات الدبلوماسية دليلاً قويًّا على مالرجل الدين إذا اكتملت شخصيته علمًا وعملاً ودنيا ودينًا .. وفطنة وكياسة وقوة ملاحظة وحسن سلوك من أثر قوىّ فى تدعيم سياسة الدولة وتأكيد دور العلم والعلماء فى بناء الحياة وتطويرها .

« وبعد .. لقد طال القول لما نزل فى القرن الرابع الهجرى وبقيت قرون عشرة .. لم تعرض بعد .. فيها من المجددين وأولى العزم والسبق من يحسن أن نطيل الوقوف عنده بعد أن رأينا ماقدّمه المجددون من تطور وتسامح وحرية وسلامة فهم تؤكد أن الدين إصلاح للحياة لا طقوس وأشكال .. والتحام بالدولة لا انفصال عنها .. واحترام للمنهج العلمى وإجلال للعلم والمعرفة » .

بهذه العبارة ينهى شيخ الأمناء أمين الخولى الجزء الأوّل من كتابه « المجددون فى الإسلام » مؤكدًا مرّة أخرى أن الهدف الأكبر من كتابه أن يشيع فى الشباب نواحى الحيوية النابضة من أعمال أولئك المجددين مما يصلحون به أن يكونوا مثلا صالحا وقدوة حسنة إلى أزمنة متطاولة .

وذلك هو أوضح ما اتجهت إليه الرغبة فى تأليف هذا الكتاب .

العندليب .. والشعراء

« ولى كبدٌ مقروحةٌ من يبيعُنى
بها كبدًا ليست بذات قروح
أبى الناس كل الناس لايشترونها
ومن يشترى ذا علةٍ بصحيح ؟!

* * *

قلت لنفسى يومها : ياله من مغرور !

لماذا يتكلم هكذا ؟ يتنهد الكلمات وكأنه ينتقيها لتكون زفرته الأخيرة ؟

لماذا يوزع اللفتات والخصلات يسويها وكأنه أمام عدسات التصوير وحوله باقات الورود !

يجادلنى بأطراف الأنامل والإيماءات وكأن بيننا مندوبى وكالات الأنباء !

ضئيل .. نحيل .. عليل لاهو بالقصير ولا بالطويل .. أسمر فى

لون طمى النيل شاحب الوجه معتل الجسد .. غريب الوجه والصوت واللسان !!

يهمس بالكلمات وكأنه يحترف فن إخراجها من الضلوع حسب دور مأساوى مرسوم .. ولاتعدو مجرد أكثر من كلمات صاعدات هابطات مابين شهيق صدر موجع وزفير قلب مترع ونزيف كبد مصدوع !

كل ذلك ونحن لاندرى !

هو مريض إذن . على وجهه بصمات طمى النيل .

تلك التى بلوناها لطول ماخاضت خطانا فى دروب القرية وأزقتها وطين حقولها وندى أسطح البيوت .

وكل مايخلع على جسد أبنائها النازحين للعاصمة من بقع المرض والداء التى تختفى تحت الجلد وتذوب فى أضواء المدينة وزحمتها ولاتبين ! ولكنها لاتفلت أبدا رقبة صاحبها .. تستكن تحت جلده وتمتص دمه وتنضح صديدا وبقعا سودا على مر السنين ..

هكذا رأيته أول مرة .. منذ سنوات .. وشعرت أنه صريع القرية ودموع الساقية ، وموال الليل الحزين .

كان أشبه بعود البرسيم الشاحب الخضرة .. ارتوى من ماء الترع المترع بالجراثيم ونما فوق السنابل وأغصان الجميز والقواقع .

* * *

قال يومها بصوت خافت خفيض ووجه شاحب مهيض :

« إنى متعب .. مشغول .. مرهق .. أود لو غنيت الشعر كله . ولكن هيهات ! الشعراء لايسعون إلى .. ويظنوننى مغرورا » !

لماذا لايعفونه من المطاردة ؟ ماذا لو طرقوا باب بيته .. وكذبوا مايشاع عنه من نجومية المرض واستغلال العلة .. ورأوه على الطبيعة وصدقوه مغردا شجيا . ومواطنا ريفيا ينهشه المرض وسوء الطالع منذ ولادته يتيما بلا أم ثم لطيما بلا أب وأم .

كل ماكان فيه .. الجسد المنهك الصامت الشاحب والوجه الكابى والنظرة العجلى .. يغريك بأن تصدقه وتحبه وتعشق فيه عود البرسيم الأخضر الحزين .

* * *

وقلت لنفسى .. يطلب من الشعراء أن يحبوه وينزلوا فى ضيافة حنجرته .. وفى نفس الوقت يلتف حوله رهط من أهل المغنى والفن يكيل له المديح ويدبج الكلمات الخاويات ويتبارى فى أغداق العناوين واللافتات وهو غير عابئ ولامستنكر .

كيف يتساوى النقيضان ؟

أصالته وبساطته كفنان وإنسان .. وتواطؤه وتقبله كل مايضفره له الآخرون من أكاليل غار وأضواء .

العجيب أن كل من حوله على كثرتهم وطول باعهم الإعلامى

والفنى لم يفلحوا أن يقدموه للناس بنفس الروح والبساطة والانتهاء .. ولم ينجحوا فى نشر صورته الطبيعية العذبة لتستقر فى قلوب عاشقيه كما هى بدون رتوش ولا أصباغ !

ولكنهم اكتفوا بأن يحكموا الدائرة حوله يثرثرون بأخباره ويفرشون البساط تحت قدميه ويشربون نخبه دون أن يترجموا ذلك إلى علاقة حميمة ومباشرة بينه وبين سائر الناس .

لذلك اختلفوا فيه .. لم يصدق البعض أنباء مرضه .. واستهجن البعض الآخر انتفاضات غضبه وإرهاقه واستنكر البعض الثالث مايغدقه على نفسه من ضوء وماتغدقه عليه الأقلام واعتبروه دعاية مدفوعة الثمن ، فى الوقت الذى كان فيه ذلك الفنان العليل ينزف وينفق من رصيد عمره سابقا بذلك الزمن مختصرا المسافة بين نور الحياة وظلمة القبر .

تذكرت ذلك كله عبر لقاء قديم .. قرأت فيه على صفحة وجهه قلبا طفوليا وشجنا دفينا ومسافة امتدت بيننا ماكان أسهل اختصارها بخطوة واحدة .

وتساءلت كثيرا .. هذا العندليب الأسمر .. ماعلاقته بالشعر والشعراء ؟ أهى نجومية جديدة يتسلق بها حبال الشعر ويركب جواد القصيدة ؟

أهو مزيد من الرصيد يضاف إلى قائمة الأرباح بعد أن غنى بالعامية وآن له أن يستثمر الفصحى ؟

أم إنه حقا يستوعب الكلمة ويعشقها ويعرف قدر الشعر ومضض الشعراء ؟

كان « عبد الحليم » من أقرب المنشدين وأحبهم إلى الشعر باعتبار أن الشعر محك الأصوات الأصيلة .

كان مثل عبد الوهاب فى ذكائه حين روى وغنى لشوقى والأخطل وايليا أبو ماضى وصفىّ الدين الحلى ومهيار وأبو الوفا وعزيز أباظه وأحمد فتحى وعلى محمود طه ومحمود حسن اسماعيل .

لذلك طارد العندليب كامل الشناوى وعبد الله الفيصل ونزار قبانى وغنى لهم بعد أن غنى لشعراء قبلهم مثل محمد على أحمد وصلاح عبد الصبور وتبقى هذه الأشعار جميعا أجمل وأحلى ما أعطى العندليب .

شريط طويل .. يتوالى .. وقد كللت الصحف بالسواد .. واتشحت شاشات التليفزيون وأمواج الاثير بثياب الحداد . وخيم على البيوت بمن فيها من أبناء وبنات وأمهات وجدات الحزن ورقرقة الدموع وسرد تفاصيل الوفاة ووطأة النبأ المباغت .. وغربة الجسد النائى وسهد الليل الطويل حين يحمل فجيعة غائب حبيب .. يذوى بعيدا عن ذويه .

ربما اختلفنا معه حيا .. وكثر فيه اللغط والجدل .. حتى لقد قلت لمن استنكرت دمعة كتمتها عليه وهى تحاورنى :

– أوليس هذا من كنت ترفضه حيا ؟

– قلت وأنا أفلت الدمعة : أوليس هذا ابننا الذى غاب ؟

نعم .. كان واحدا من أبناء مصر .. غصنا فى شجرة الأم طوحت به الريح وقذفت به القرية الظالمة لأتون المدينة الملتهب ليكون لها حطبا جنيا ..

حكايات أفندينا ومدينة السكر

زمان فى طريقى إلى قريتنا مارًّا بتفتيش « البرنس حليم » .. (بدنشال) .. كنت أتسلق بعيونى سرايته الصفراء .. علّنى ألمح وراء النوافذ وجهه الأحمر السمين . أو علَّ إحدى الأميرات تبصّ من الشباك مرة فترمى لى نظرة .. وأكون أنا ذلك الولد الفلاح الذى تقع فى هواه الأميرة الحسناء .. وتلقاه فى غفلة من عيون الحراس كما يحدث فى قصص ألف ليلة والشاطر حسن .

وفى أماسى الجرن . كنّا نتسامر بنوادر الأمراء .. والبرنسيسات عندما يحضرون أيام المحاصيل .. ليجمعوا النقود وتتقلّص فرائصنا من الخوف .. عندما تجىء سيرة العفاريت التى تسكن القصر لحراسته فى غيبتهم .

وفى الليل .. كنت أقلب عينى فى الأرض .. وبين سنابل القمح وقد غمرها القمر علّنى أعثر على طاقية الإخفاء .. فأنسلّ داخل الغرف .. وأرى البرنس والبرنسيسات .. بلا هيلمان .. ولا ياقات منشّاة . أراهم وهم يأكلون .. أو يبكون مرة مثلنا .

وكنت أتحرق شوقا إلى معرفة هذا الصنف من الناس .. القادمين من مصر أم الدنيا وهل كل الناس فى مصر مثلهم . وكنا نتساءل من أى عجينة مسحورة صُبّت وجوههم الحمراء .. وعيونهم الملوكية . كنت أتخيلهم دائمًا من عجينة أخرى .. لاتنبت أبدًا هذه الوجوه المعروقة السمراء .. وجوه الفلاحين فى قريتى وسائر القرى . عجينة لابدّ أنها معطرة بماء المسك .. ومغمورة فى أوعية النبيذ .. جلبها جنىٌّ .. من قبو سفينة قرصان !

وذات مرة .. ضرب البرنس فلاحًا على الطريق الزراعى بعربته فقتله .. وهرع عسكرى المرور .. ليقبض على الأفندى القاتل .. وشخط الأمير حليم فى العسكرى قائلًا : برنس .

وتسمّر العسكرى فى مكانه وضرب تعظيمًا لسموه .. وأفسح الطريق للعربة .

وعندما ذهبت إلى المدرسة فكرت فيما لو ضربت « المسيو تيجران » مدرس الفرنساوى ذا الوجه الأحمر كالبرنس .. ولو « نبوتين » فأقتله فى حوش المدرسة وأقول لمن يسألنى : برنس .

والآن ..

وفى الطريق إلى نجع حمادى .. تداعت صورة الطفولة القديمة أمام بصرى .. وهذه المرة شعرت أننى ذاهب لأنتقم .

أنتقم من سذاجة الصبى الصغير وهو يمرّ على « سراية البرنس حليم » الصفراء بدنشال فى طريقه إلى قريته « الروقة » .

أنتقم من أرق الليل وأحلام طاقية الاخفاء وغرام الأميرة .. والوجوه الحمراء .. وحواديت العفاريت الرهيبة .

أليس البرنس يوسف كمال .. ابن عم البرنس حليم وكل البرنسات الآخرين ؟ وغرقت فى شعور لذيذ .. اختصر العشر الساعات فى قطار الصعيد . شعور عفوى باستجلاب صور الطفولة الرائحة .. وشعور واعٍ بتفسير اللغز . لغز الوجوه المعروقة السمراء .. وسرّ العجينة المسحورة التى جلبها جنّى من قبو سفينة قرصان .

ويحكى أن ..

يحكى أن .. برنسًا اسمه يوسف كمال .. نحيفًا كالفأر . عنيفًا كالجدار .. فى يمناه كرباج وفى يسراه كلبه المفضل .. وفى لسانه رطانة كرطانة الخواجات .

ويحكى انه استقطع هذا البرنس مساحة قدرها ثمانية عشر ألف فدان بعيدا عن القاهرة بأكثر من ٥٠٠ كيلو متر وبين شاطئ النيل وامتداد الجبل أقام البرنس « قلعة يوسفية » حكم منها الأرض ومن عليها من فلاحين وحيوانات .

وكان البرنس غريب الأطوار شاذا كالخديو إسماعيل والملك فاروق وسائر السلالة الملكية . ولكى يكون البرنس برنسًا .. فلابد

وأن يلهب ظهور الفلاحين بالسياط وبحذائه الملكى بسبب وبلا سبب .

وكان للبرنس هوايات شتى .. مثل الكلاب والخنازير والخيل والنساء .. كان يقتنى مجموعة من « الحلاليف البرية » المتوحشة .. استوردها من الخارج ليطلقها فى الجبل ويجرى خلفها ليصيدها .

وكان الأمير .. ساديًّا يعشق الفتك بالآخرين .. بالحلاليف وهو يطاردها فى الجبل وبكرة الجولف .. وهو يضربها من فوق حصانه .. وبالفلاحين والخدم وهو ينهال عليهم بالسياط أو بالرصاص .. وأخيرا .. بزجاجات الويسكى الفارغة .. يلقيها فوق سطح النيل ويضربها بالناريليتمرن على النيشان ، وحتى لايحرم الأمير نفسه من لذّة التعذيب .. طلّق زوجته « البرنسيسة أمينة » لأنها أصرّت أن تترك نجع حمادى وتعيش فى إسطنبول معه .

وعلى مساحة قدرها خمسة عشر فدانًا .. بنى الأمير سراية كبيرة بحذاء شاطئ النهر وأحاطها بأربعة أفدنة من الحدائق الغناء .. وعلى شاطئ النيل الآخر زرع ثمانية أفدنة أبراجًا للحمام .. ليرفرف بجناحه الأبيض فيحجب عن عيون البرنس غبار الجبل .. وليكون غذاء كلابه المفضل .

وعلى البرّ الشرقى للنيل أيضًا .. بنى البرنس ثلاثين كوخًا على شكل مبانى قبائل الزولو .. بأفريقيا لتكون « خلوة » يلوذ بها مع الأصدقاء فى طقس أفريقى يظلله الموز والنخل .

افتح يامكى ..

ويحكى أن البرنس كان يتفاءل بكلب صغير اسمه « مكى » ولا يفارقه أبدا .. ومرضت أم الرجل الذى يشرف على مكى .. واستدعوه للقاهرة ليلحقها فى النزع الأخير . واستأذن من أفندينا .. واستغرب البرنس أن يسافر المربّى لمثل هذا السبب .. ويترك مكى المسكين بلا رعاية . واستعطف الرجل البرنس .. وقبّل حذاءه ووافق أخيرًا عَلَى شرط .. أن يفتح مكى فمه .. ويقول موافق .

والتفّوا حول الكلب : افتح يامكى . افتح فمك وانطق من أجل الأم المريضة وفتح مكى فمه وقال : هاو . ولكنه لم ينطق .

وقالوا للبرنس .. إن مكى لاينطق .. وقال البرنس : إذن لا سفر . ولم تمض ساعات حتى عثرت قدم مكى .. والتوت . ووقفت الدائرة اليوسفية على قدم من أجل قدم الكلب ! وفورًا أعدّوا قطارًا خاصًّا لإرسال مكى للقاهرة لعرضه على الأطباء واحتضن مربّى مكى الكلب الصغير الذى كان أحنّ قلبًا من البرنس ونطق على طريقته الخاصّة وأتاح له السفر لرؤية أمه بالقاهرة .

ويحكى أن البرنس ذهب يتفقد المدرسة الثانوية باعتبارها مدرسته التى بناها وملكها بمن فيها .. وكان كعادته الكرباج فى

اليمنى .. وكلب ضخم فى اليسرى .

واستعدت المدرسة لاستقبال أفندينا .. ولبس حضرة الناظر بدلة شيك من باب اللياقة فى حسن استقبال الأمير . وفوجئ الجميع بالبرنس يبحلق فى الناظر باشمئناط . ثم يلكز الكلب الضخم .. ليهجم على حضرة الناظر ويمزق البدلة الشيك ويسيل دمه عليها .. والبرنس يهتز بقامته الضخمة من الانبساط !

– لماذا ياأفندينا .. وحضرة الناظر لم يصنع مايغضب سموك ؟

والتفت البرنس لمن حوله قائلاً : دى فلاح .. إزاى يلبس بدلة شيك .. ساب إيه لأفندينا ؟

الحقنى ياشيخ شرقاوى :

ويحكى أن .. هوايات البرنس كانت متعددة .. ومن ضمنها ولعه وإيمانه برجال الدين والأولياء .. وكان الشيخ أبو الوفا الشرقاوى أشهر أهل زمانه .. دينًا وعلمًا وتقوى .. وكان يحظى باحترام البرنس وهباته .

ومرة كان البرنس فى رحلة بغابات أفريقيا لصيد الأسود .. وهبش واحد منها فى رقبة سموه .. وصرخ : الحقنى ياشيخ شرقاوى ويقولون .. إن الشيخ الشرقاوى طار من نجع حمادى .. متخفيًا فى زىّ بدوى .. وضرب الأسد بيده فى جبهته فقتله وأنقذ البرنس !

ويحكى أن الفلاحين ضاقوا بكرباج الأمير وجنونه .. وفى عام

١٩٤٩ انطلقت أعيرة نارية حول قصر البرنس .. وخطفوا صراف التفتيش بخزينة النقود .. وحدثت مأساة . فورًا أغلق البرنس مركز البوليس ، ونقل مدير قنا ، وأطلق عبيده وكلابه وأسلحته فتكًا في الفلاحين .. وأحضر طيارة حلّقت فوق الجبل بحثًا عن خزينة النقود وليس عن الصراف !

* * *

وذات صيف .. منذ ١٢ عاما .. قامت ثورة في البلد .. وانتهت سُلالة البرنسات وغرائب الحكايات . وبدأت حكاية أخرى أبطالها الفلاحون أصحاب الأرض .. والكادحون أمام تروس الآلة .

ودخل الفلاحون لأوّل مرة « القلعة اليوسفية » التي كان ممنوعًا أن يُهوّب واحد .. نحوها . وتحوّلت القلعة بما فيها من قصور وأثاث إلى مكاتب للإصلاح الزراعي .. ولم يبق من البرنس سوى مجموعة قبعات وكرابيج وأسلحة ومجرد ذكرى .

وانتهت الجولة ..

وتطلعت إلى ما وراء الجبل الذي يربض فوق شاطئ النهر ويزحف حتى أسوان حيث ترك أبناؤه بلدهم .. وأطفالهم .. ليعملوا في بناء السدّ ولتحوّل المياه زمام محافظتهم قنا .. التي تعيش على ريّ الحياض إلى ريّ دائم يعطي الزرع والنماء على مدار العام كله .. ويعوض الأبناء والزوجات خيرًا عن غياب الرجال .

وفي طريق العودة من نجع حمادي غمرني شعور بالثأر لا للصبّي

الصغير وهو يمر على سراية البرنس الصفراء .. (بدنشال) فى طريقه إلى قريته دائما بل لأطفال قريتى ولكل الأطفال وأحسست بالفارق الكبير ! الفارق بين طفولة شبّت فى ظل قصور البرنسات والوجوه الحمراء .. وطفولة تشبّ فى رحاب السد .. وفى ظلّ الوجوه السمراء .. وجوه أبناء بلدى من الفلاحين والعمال .

عالم هذا المكان

« وذكر المقْدسى فى أحسن التقاسيم »

« القاهرة مدينة بناها جوهر الفاطمى لما فتح مصر وهى كبيرة حسنة بها جامع بهى وقصر السلطان وسطها »

سألت رجلاً طويلاً عريضًا يكاد يسد الباب الخلفى لمسجد الحسين :

أين المسافرخانة ؟

فأشار إلى دورة المياه ..

ليست هذه المسافرخانة

لا أعرف سواها كذلك ..

سألت طفلاً صغيرًا نحيلا أسمر اللون ينتعل تراب الحارة لامع الحدقتين والأسنان .. أين المسافرخانة ؟

فأشار .. هناك فى آخر الحارة . « درب الطبلاوى » يمينك ثم يسارك ثم عطفة وزقاق سد . « حامد ندا » أول دور .. الرسامين كلهم هناك ..

وانفلت الصبى كجنّى صغير .. ابتلعته الحارة .. ذهبت .. باب خشبى عتيق مطوّق بمتاريس من الحديد كأنه باب حصن .. خلفه يقبع « بدير » حارس المكان وموظف الآثار وعدّة أطفال له وكأنهم جزء من المكان ..

بهو واسع عالى السقف لوقع الخطوات فوقه صدى .. وللكلمات تحت سقفه رنين .. فناء دائرى رطب ظليل وخضرة ملتفة وشجيرات ناشئة وفسقية من المرمر الملوّن المضىء كأنها خرير شاحب الصوت .. وشقشقات عصافير ورفيف أجنحة .. وحفيف نسمة شبه خريفية تثير رعشة خفيفة من الحنان والشجن .. قبة عاتية غائرة التجويف لها عيون من الزجاج المعشق تتسرب من خلالها أشعة ذابلة لغروب راحل استلقت بقاياها على المشربيات والنوافذ والقباب وسكبت حمرة دافئة فى الخدود .

صعدت .. فوجئت بالصبى الأسمر النحيل يلعب على الحائط .. ابتسم لى من خلال لوحة برتقالية اللون .. فوجئت بالرجل الطويل العريض الذى يسدّ باب المسجد يزغر لى من وراء كتلة .. من اللون الأزرق !

رأيت سحنًا ووجوهًا من المقاهى والحوانيت .. وعمائم مجاذيب خضراء .. وضفائر سوداء .. وملاءات لف ترفرف عبر اللوحات . سمعت ضحكة فتاة كانت تقف على إحدى العتبات .. ولمحت كفّ بنت تخضبها الحناء تحبك المنديل فوق الجبين .

حيّ الحسين ...

الشمس ترخى جدائلها الذهبية فى مياه الشفق .. وتنشرها رذاذًا ذهبيا عبر المكان والزمان .

الميدان مكتظ متلاطم .. الناس غادون رائحون أصوات الباعة خليط من كل لون وصنف .. رائحة الشواء تعبق وترسل الدخان .. ساعة الميدان تكذب .. تشير إلى منتصف الليل والشمس لم تغرب بعد .. فالنهار يتناول وجبته الأخيرة على مائدة الغروب ..

السواح مبهورون .. والسائحات سابحات فى موج الشرق وسحر الرحلة .. منبهرات بالبخور والمباخر والشواء والمواقد والقباب والمآذن والأزقة والدروب والضجيج واللغط .. الشورت الساخن .. والميكرو .. ومافوقه .. وكرنفال أزياء يجوس خلال الأزقة والحارات .

المجاذيب ينظرون ثم يشطحون .. الصالحون يستنكرون ثم يحوقلون .. المئذنة تكاد تكون الوحيدة التى تطل من فوق .. والتى ترتدى ثوبًا طويلا من حبات الضوء .

موجة من عطر التاريخ القديم تفوح وتغمر وجه الميدان .. ريح شرقية تهب من بعيد فتشعل ألف شمعة يتراقص لهيبها فوق ألف مئذنة .

صحيح أن عمرها أربعة آلاف عام ويزيد .. منذ كانت « منف »

المدينة البيضاء التى أسسها « مينا » بعد توحيد القطرين وعرفت فى التوراة باسم « نوف » وعرفها اليونانيون باسم « ممفيس » وظلت عاصمة مصر (٥٣٥ عاما) وحتى عام ٣٦٠ ق . م

ولكن الأربعة آلاف عامًا وأكثر هى عمر التاريخ فى حياة مصر .. أما الألف شمعة التى تتوهج فوق ألف مئذنة فهى عمر القاهرة التى وضع أوّل لبنة عربية فيها « عمرو بن العاص » عام ٢١ هـ وكان اسمها « الفسطاط » واندثرت خلال أربعة وخمسين يومًا من النيران .

ولم تستسلم القاهرة قط .. ظلت عالية القامة مكابرة صامدة .. فأكمل لبناتها « جوهر الصقلى » بعد عمرو بـ ٣٣٧ عاما وحين دخلها على رأس جيوش المعز فأنشأها قاهرة الأعداء بعد عام كما ذكر « المقريزى » وفى نفس العام كما ورد فى « النجوم الزاهرة » وعرفت بهذا الاسم بعد سبعة أعوام كما قال « ابن حوْقل فى المسالك » المهم أنها أنشئت وجاء المعزّ فبنى جامعًا بها هو الأزهر .. وقصرًا منيفًا للسلطان هو قصره .. وصارت القاهرة ذات حسن بهى يصيب « أبلغ الناس بالبكم » وضرب حولها سورًا من ثلاثة أبواب بناه ثلاثة إخوة جاءوا من « الرها » كما تقول الخطط التوفيقية ليحرسها من العين فصارت « المحروسة » .

خلف إحدى هذه البوابات « باب الفتوح » .. وبعد عبور الميدان المكتظ بالسائحين والسائحات تجد حىّ الجمالية .. وتجد

درب الطبلاوى وتجد أخيرًا « المسافرخانة » .

بناء عريق عتيق نفيس للسكون فيه رائحة وللصمت فيه مذاق وللذكريات أريج .

أطل وجه امرأة يونانية تسأل بلكنة عربية :

أهذه المسافرخانة ؟ قطعت آلاف الأميال لأراها .. اسمى « مارى نيوتوكس » أين حامد ندا ؟ .

نعم هذه هى المسافرخانة .. محلّة المسافر كما يقول « القاموس » والنزل الذى يأوى إليه النازلون . وخان كلمة أعجمية معناها البيت أو الموضع الذى يأكل فيه الملك ودخلت العربية فى القرن الرابع الهجرى وأصبحت تدلّ على أمكنة يختلى فيها للعبادة .

والسفر .. (بالفتح) هو قطع المسافة .. والسفر (بالكسر) هو الكتاب والسفْرة « بالفتح » هى رحلة المسافر .. والسُّفرة « بالضم » هى مائدته وطعامه وسفر خرج إلى السفر ، وكان على عادة تجار ذلك الزمان أن يخرجوا للسفر فى أحمال وأثقال ومؤن وحشم وخدم كثير .. وينزلوا فى الخانات والوكالات والتكايا ..

ولكن كبير تجار مصر « الحاج محمود محرم » أراد أن يدعم علاقاته التجارية ويحتفى بالتجار الوافدين .. فبنى لهم هذه الدار الجميلة منذ ثلاثمائة عام .. لينزلوا فيها بمتاعهم ونسائهم وأموالهم فيكون فى ذلك أمان لهم وتكريم من كبير تجار القاهرة .. وحتى تنشرح صدور التجار أنشأ لهم قاعتين كبيرتين لتقام فيهما ليالى

الأنس والمرح ليلًا ، ويستقبل التجار الوافدين من كلّ فجٍّ فيها نهارًا .. وزين القاعتين الكبيرتين بالمرايا النادرة .

وحتى لايطّلع أحد على حريم التجار .. صنع هذه المشربيات النادرة التى لاتتسع إلّا لنظرة عين أو إطلالة رأس على الأكثر ..

بعد قرون من الزمان انقرضت هذه الصورة للتجارة .. وأقفر المبنى وأحيل إلى المعاش .

فجأة ومنذ سنوات انقشع الغبار والعنكبوت من البناء . لتحلّ محلّه الألوان واللوحات .. تحوّل مأوى التجار سابقًا إلى مشروع لتفرغ الفنانين .

دبت الحياة فى المكان الخرب .. اختفت وجوه التجار والسماسرة لتحلّ مكانها وجوه الرجال والنساء من أحياء القاهرة .. ولوحات ناطقة تموج بالتخيلات العجيبة .. غبار القلعة وأعماق الحارات والخيول المجنحة والأشجار ذات الأنداء وتخيلات عجيبة لاختلاط ملامح الكائنات فى ألوان صفراء وخضراء وحمراء وبرتقالية .

تذكرت الشمس الحمراء « لشاجال » وراقصات الباليه فى لوحات « ديجا » رأيت « فان جوخ » يمتطى جواد عباد الشمس ويسافر .. سمعت « جوجان » يدق فوق الأرض بحذائه القوى .

أبصرت بنت البلد « لمحمود سعيد » ترخى ضفيرتها وتخرج من الحمام .. أبصرت « مختار » ينحت من قلبه تمثالا لمصر .

وعانقت مصر .. منف القديمة .. والفسطاط .. والمحروسة وألف عام يتوافد عليها الغزاة .. وينهب ضرعها الحالبون وهى لاتنحنى أبدًا .. بل تظلّ دائمًا عبر السنين قاهرة الأعداء .

فنان يعشق القرآن

وكأنما كان على موعد تأجل عامًا بعد عام .. اتفقا عليه عشية الثامن والعشرين من شهر إبريل لأربعة أعوام خلت فى الكويت .. وتم اللقاء عشية نفس الليلة من نفس الشهر فى القاهرة .

كانا صديقين حميمين متشابهين كلاهما فارع طويل وحشى الملامح جياش النبضات غريب الذات .. الأول شاعر كبير اغترب آخر أيامه فى الكويت بعد أن ضاق بالنكران والجحود .

والثانى قارئ قرآن وملحن وفنان وصاحب صوت له طبقات الرعد .. اغترب عشرين عامًا فى نفس الأرض بعد أن ضاق بنفس النكران والجحود .

الشاعر الكبير اسمه : محمود حسن إسماعيل سيد شعراء عصره غير منازع .

والقارئ الفنان اسمه : صالح أمين لا يعرفه الكثيرون نجم الخمسينات وفتاها الوسيم الذهبى الصوت المجلجل العريض فى محافل مصر .. وفرقها على مسارح أوربا والاتحاد السوفييتى .

والمناسبة أمسية الذكرى الرابعة لصديقه الشاعر .. وقصيدتان من تلحينه عاشهما طوال أربعة أعوام ليغنيهما تلك الليلة فى ذكرى صاحبه .

وفى تلك الليلة بالذات مات صالح أمين فجأة .. حمل لحنه الجريح وصوته المجهد ورحل إلى عالم صديقه الآخر .

ربما عزف له اللحن المشترك فى فردوسهما المجهول .. وربما تناغما وترنّما .. وشربا نخب هذا اللقاء الدرامى فى حانة الأقدار !

من كان يدرى ؟

ترى هل كان يدرى وهو يودعنى بسيارته حتى باب البيت فى الحادية عشرة مساء أن بينه وبين أجله ساعة واحدة .

وأن بينه وبين حضور الأمسية فى السابعة من مساء اليوم التالى فراقا إلى الأبد .

هل كان يعلم وهو يشد الأوتار ويرخيها أن وترحياته قد انقطع .. وأن ريشة النسر الشماء التى ظلّ يبريها ويشذبها ليصنع منها ريشة عود لن يعزف بها غدا .. كان يركض كالجواد الضال ركضا بين الغابات والأدغال .. وكأنه يسابق الزمن لموعده الأخير .

وعندما قررت لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للثقافة الاحتفال بذكرى شاعرنا الكبير واقترحت أن يغنى قصائده الملحنة .. انتفض

مستجيبا فرحا لطول ما غنى هذه القصائد فى لياليه مع صديقه الراحل وفى ليالينا خلال عطلات الصيف ، دون أن تصل هذه القصائد للناس مرة واحدة .

والتقينا كثيرا احتشادًا للأمسية .. وكان آخر هذه اللقاءات الليلة الأخيرة قبيل الأمسية .

مر بى فى الصباح والمساء واهتم بتذاكر الحفل ، قمنا بكتابتها وتوزيعها وأوينا إلى منزلى ومع عوده « ليذاكر » على حد تعبيره اللحن .

واستمعنا .. أدار شريطين من القرآن الكريم رتّله بصوته الرخيم لسورة البقرة والرحمن وانشق القمر . ساعتان من التلاوة الأصيلة الآسرة حيث سجل القرآن كله على شرائط ، وكان حلمه أن يخرج للناس .

وانتقلنا للنغم وعزف وغنى . وأعاد وسجلنا اللحن .. وقام فجأة يتأبط عوده والوقت مبكر بعد .. معتذرًا بأنه متعب وانصرف .

وفى الصباح الباكر اتصلت زوجته تسأل أين كنا بالأمس .. ولم تبح بشىء .. وبعدها حدثنى الفنان عبد الحميد توفيق زكى فى حوار بارد غريب :

- صباح الخير .. صالح كان معك أمس ؟
- نعم .
- أين ذهبتم وماذا فعل ؟

- عزف لحنه وسجلناه و .. لماذا تسأل ما الخبر ؟

قال : أصله مات !

ومادت بى الأرض وأجهشت فى نشيج مكتوم .. وهرعت لوداع أخير لم يكن فيه غير بضعة أنفار . فالأصدقاء نائمون والصباح قائظ .. والمفاجأة قاسية .

تعالى نسمع الليلا

فى المساء .. ذهبنا لأمسية الشاعر الكبير وفى برنامج الدعوة أغنيتان للفنان صالح أمين .

وتعاقب الشعراء والأدباء د . شوقى ضيف ، ود . أحمد هيكل ، وطاهر أبوفاشا ، وأمل دنقل ، والفنان ناجى حبشى .. وجاء دور صالح أمين .

ووقف الشاعر فاروق شوشة يقدمه بقوله :

« أيها السادة .. لا أظنكم تعرفونه أو سمعتم به .. لكن كان من المقرر أن يكون واحدا من المحتفلين بهذه الذكرى .

كان صديقا عزيزا للشاعر وكانت أنغامه كلها تحتضن كلمات محمود حسن إسماعيل ونحوها إلى قصائد حب ، وأنّات على شفتيه ، وكان يملأ الليل بين أصدقائه وعارفيه بصوته المعبر ، وألحانه الأسرة وهو ينغم شعر صاحبه الذى صحبه فى الغربة وعرفه وعشقه

على أرض الوطن .

كان من المقرر أن يكون بيننا الليلة .. لكن فى صباح هذا اليوم صعدت روحه إلى بارئها ولحق بصديقه الشاعر ولكن تسجيلا للأغنية التى كنّا سنستمع إليها الليلة معنا الآن .. فليكن هذا التسجيل تحية من روح فنان أصيل ، صعدت هذا الصباح إلى روح فارقتنا منذ أربع سنوات .. مع الفنان صالح أمين .

وانساب الصوت دامعًا مخضل النبرات ، والنغمات تحلق فوق رءوس الحاضرين وقد باغتهم الأمر .. يغنى ويقول :

تعـــالى نسمـع الليــــلا عـلى الشط ينـــاجينـــا
وفى كفيـــه خمـــر الحب تسقيـــه .. وتسقـينـــا
فكم دارت بنـــا الأيـام لم تسكـــر ليـاليـنــا
وكم طـافت بنا الأحـلام لم ترقص أغـانينـا

وانتهت الأمسية وطوى الأمر وعدت لأتقلب على الجمر ودوران شريط الذكريات .

وعندما طلب منى رئيس تحرير « الكواكب » وصديق عمره « حسن إمام عمر » كلمة عنه ضاعف من الشجن وأثار الدفين لطول ما عانيت من وطأة المفاجأة ، وددت لو أغلقت صفحة هذا الكتاب .

ولكن هيهات كيف يسقط صديق فنان أصيل فى زحام المدنية

دون كلمة وداع .

وفى نفس الحجرة التى عاش معى فيها لحظاته الأخيرة ، وغنّى ورتّل القرآن جلست أجمع شتات النفس وأقلّب فى أوراقى القديمة تحايلاً منّى على التجلّد ، وفرارا من أشباح اللحظة الأخيرة .

وعثرت على موضوع غريب .. كتبته معه منذ أربع سنوات فى إحدى عطلات الصيف ودفعت به لصديقه وصديقى أحمد بهجت رئيس تحرير « مجلة الإذاعة » لنشره .. وضع الموضوع بصوره فى أضابيره . وغضب صاحبى صالح لدرجة القطيعة .

وفجأة أعثر على مسودة الموضوع بعد هذه السنوات وفى هذه اللحظات .. وكأنما كتب عليه ألّا يذاع لحنه أو يكتب عنه إلّا بعد رحيله .

وإليكم الموضوع فى سطور :

كانت البداية هى القرية .. تسلق صوته مآذنها ، وسرى عبر حقولها وسواقيها . فشب واستطال فى منطلق الهواء والريح وحفظ القرآن فى السابعة وجوّده فى العاشرة فامتلك بذلك كنز الحلاوة والترتيل ومفاتيح النغم .. وأطلقوا عليه فى المعهد الدينى لقب « الشيخ رفعت الصغير » .

وكان أستاذه هو أبوه الشيخ صاحب الصوت الجهير الذى أعد ابنه ليكون عالمًا بالأزهر .

ودخل الفتى الأزهر .. ومنه التحق بمعهد الموسيقى وقاطعه أبوه لهذا المروق .

عندما قرأ القرآن لأول مرة أمام محمد عبد الوهاب أخذ بيده فورًا وقدّمه إلى مصطفى رضا .. ودخل المعهد وفى نفس الوقت اعتمد قارئا للقرآن فى الإذاعة عام ١٩٤١ ، ولم يحترف ، قرأ مجانًا ليسترضى والده الشيخ الذى صالحه عندما سمع صوته فى الراديو يقرأ القرآن لا يغنى الألحان .

تقدم فى دراسته الموسيقية بنجاح ، وكان هو وإسماعيل شبانة الناجحين الوحيدين من بين خمسة وأربعين « صوتًا » عام ١٩٤٨ ، وأمام طه حسين غنى أوبرات عالمية مثل :

« أوبرا هولنجرين » لفاجنر مع مطربة إيطالية مترجمة إلى العربية .

فى عام ١٩٥٥ بدأت تجربة الأوبريت المصرية بالاشتراك مع المسرح الحر عبد المنعم مدبولى - سعد أردش - توفيق الدقن - صلاح منصور - كمال ياسين - على الغندور .

فقدّموا أوبريت « مراتى بنت جنّ » لمدة شهرين فى الأوبرا أمام الفنانة أميرة كامل .

وبعد هذا النجاح .. قدمنا « ياليل ياعين » بعد أن انضمت للفرقة . نعيمة عاكف - وفايدة كامل - وشهر زاد - ومحمود رضا - وشكوكو . وعرضت الأوبريت تأليف يحيى حقى ، وألحان

عبد الحليم نويرة وبطولة صالح أمين ، وفايدة كامل . واستمر عرضها على مسرح الأوبرا لأول مرة ٦٧ عرضًا .

وسافرت الفرقة إلى الاتحاد السوفييتى عام ١٩٥٧ ، وقدمت عروضها الغنائية فى مهرجان الشباب العالمى .. ونالت نجاحًا كبيرا .. وعادت الفرقة للقاهرة .. لتسدل الستار ويتوقف نشاطها .

وانطوى صالح أمين على نفسه .. واعتصم بكتاب الله وقرر أن يتفرغ له .. فعكف عليه وأعاد قراءة تفاسير القرطبى ، والطبرى ، وابن كثير ، محاولا أن يصل إلى طريقة للقراءة ذات إيقاع بسيط لا تطريب فيها ولا غناء .

العقاد .. وتلحين القرآن

فى هذا الوقت كتب محمد تبارك موضوعا فى « روز اليوسف » بعنوان « تلحين القرآن » وهاجت الخواطر واختلفت الآراء واحتج رجال الدين لمجرد العنوان .

ونشر عباس محمود العقاد .. فى « جريدة الأخبار » رأيا فى هذا الموضوع ردًّا على أسئلة القراء ، فقال : إن أى قراءة سليمة مشتملة على أحكام القراءة فهى قراءة صحيحة .

وحمل صالح أمين عوده .. وذهب إلى بيت العقاد بعد أن أعطاه موعدًا يوم الجمعة .

ومكث ساعة يستمع ويتفرج وسط رواد الندوة الأسبوعية الشهيرة ، إلى أن قدمه الشاعر طاهر الجبلاوى للعقاد قائلا :

هذا هو صالح أمين ياأستاذ ومعه العود وقد جاء ليشرح تجربته .

وقال العقاد : أهلاً وسهلاً فليتقدم .

وتقدّم وجلس أمام العقاد الذى سأله عندما رأى العود :

- أنت تريد بجانب القرآن أن تسمعنا لحنًا ؟

ونفى الرجل هذا القول .. فعاد يسأله العقاد :

- أو تريد أن يصاحب القارئ فرقة موسيقى ؟

وقال صاحبنا لا .. فقال العقاد وهو ينوه بما فى « سورة الرحمن » من موسيقى وإعجاز :

أسمعنا إذن نماذج .

وأدرك الرجل أن العقاد يلمح له بقراءة الرحمن فقرأها .. كاملة وقام العقاد واقفًا وصافحه وهو يقول :

أجدت وأحسنت .. هكذا يرتل القرآن .

وأيّد الجميع قول الأستاذ . وفى اليوم التالى نشرت « أخبار اليوم » موضوعًا عما دار فى الندوة وتأييد التجربة إلى أن وئدت الفكرة لرفض بعض رجال الدين مجرد فكرة العنوان وهو تلحين القرآن وهاجم الشيخ أبو زهرة .. تجربة صالح أمين وكاد أن يكفره ، وفى نفس العام هاجر للكويت مدرسًا للموسيقى وسجل عدّة ألحان بصوته قدم أوبريت شعرية لمحمد يوسف المحجوب

شاعر السودان الكبير .

وظلّ صالح أمين بالكويت فى صحبة صديقه الشاعر محمود حسن إسماعيل فى أعوامهما الأخيرة .. والذى أقنعه بتلحين الشعر الذى لا يتناقض مع فكرة اعتزاله وجلال القرآن .

وعاد إلى مصر .. بعد أن كان شاهد موت صديقه الوحيد .. فى تلك الليلة الربيعية الداجية .. وهو كبير الأمل أن يبدأ رحلة جديدة مع النغم والشعر وترتيل القرآن .

ولكن الرحلة انتهت .. وتشاء الأقدار أن تظل أنفاسه حبيسة أوتاره وصدره وهو يدخرها لأمسية الذكرى الرابعة لصديقه الراحل .. فيحال بينه وبين ذلك ويصعد إلى صاحبه فى نفس الميقات وكأنهما على موعد مضروب .

مشوار طويل .. لرجل قصير

كان يضحك دائما ونحن نذرع الطرقات آخر الليل .. ويقول فى سخرية مريرة : « المنفلوطى .. الذى هزّ وجدان مصر بالعبرات والنظرات وترجماته الفرنسية وهو لابس العمامة لا يختار يومًا لوفاته إلّا يوم نفى سعد ، خرج الشعب وراء سعد ولم يبق أحد ليخرج وراء المنفلوطى ، وعندما أفاق الناس افتقدوه ثم نسوه » .

وتتلاشى الضحكات ويلفنا الصمت والأسى وتمر الأيام .. ولا يجد « عبد المعطى المسيرى » يوما ليموت فيه إلّا يوما أشد هولا حين خرجت مصر كلها وراء عبد الناصر فى القاهرة .. وتسلل المسيرى وحده إلى مقابر دمنهور .. وعندما تلفتنا لنراه .. افتقدناه ثم نسيناه ..

وتذكرت قول الشاعر حين رثى المنفلوطى وكأنما عنى صاحبى معه :

اخترتَ حين يومِ الهولِ يوم وداع
ونعاكَ فى عصْفِ الرياح الناعى

تذكرت .. وذرفت دمعة من خلال ابتسامة .. دمعة على الرجل الصديق الذى لم يشيعه أحد من أصدقائه .. وابتسامة لسخريته من رحيل المنفلوطى على النحو الذى رحل به !

ولقد بدأ المسيرى رحلته الفنية فى الثلاثينيات حين استقبلته القاهرة فاتحة ذراعيها له ولكتبه الثلاثة « أقاصيص من المقهى – وبين القهوة والأدب – وروح وجسد » وحين استقبله عميد الأدب الدكتور طه حسين بهذه الكلمات :

« أحسست إعجابًا عظيما بهذا الرجل الذى ثقف نفسه لم يختلف إلى مدرسة ولم يجلس إلى أستاذ وإنما تعلّم القراءة والكتابة فى السوق وأخذ يقرأ ما يذاع فى العامة ثم قرأ لأكثر الكتاب المصريين ثم ما نقل إلى العربية من آثار الغربيين وهو الآن على كثرة ثقل أعباء الحياة عليه لا يستطيع أن يستقبل النهار والليل إلاّ قارئًا كاتبا وناقدًا مفكرا . كل هذا خليق بالإعجاب وخليق بأن يحملنى على أن أهنئ هذا الكاتب الأديب تهنئة صادقة بهذا الجهد الخصب المتصل وبهذا التوفيق العظيم الذى أتيح له » .

بهذه البداية بدأ « عبد المعطى المسيرى » مشواره الطويل من مقهاه بدمنهور إلى القاهرة ليعيش أعوامًا مشحونة وحارة بين الصحافة والسياسة والأدب . ما كاد يرقى نجمه ويلتمع حتى تشده أسباب العيش إلى مقهاه مرة أخرى فيقبع فيه سنين طوالاً يتوافد عليه خلالها ركب من الأدباء والفنانين كبارًا وصغارًا يأنسون إليه

ويلتفون حوله .

وتقذفه الحياة مرة أخرى وبعد فوات الأوان إلى القاهرة .. وهذه المرة لم يبدأ مشواره الطويل عشقا فى الأدب أو تطلعًا للشهرة بل بحثًا عن الحياة ولم تفتح له القاهرة ذراعيها كالمرة الأولى ولم يستقبله عميد الأدب « بافتتاحية » فى جريدة السياسة فقد تخلف الرجل عن الموكب نصف قرن .. فالعاصمة لا تعترف إلاّ بمن يأكل على موائدها ويمشى فى مناكبها .. وجد كل شىء يتنكر له وينكره .. رفاق جيله يحتلون مكانهم فوق الخريطة ولا مكان لوافد جديد .. شباب بلدته الذين زحفوا للقاهرة تمتصهم دوامة المدينة .. الصحف التى كانت تنشر التحقيقات عنه وعن مقهاه تغاضت عنه .. والجالسون فوق الأرائك من أهل الفن لا يرحبون برجل له كبرياء وله مشوار طويل خاصة إذا كان عزوفًا عنيدًا خجولاً ، فلاذ بنفسه وأغرق طاقته فى هموم العيش والأسرة .

وقد يختلف الكثيرون حول عبد المعطى المسيرى .. كاتباً لامعًا فى الثلاثينيات وصوتًا خافتًا فى السبعينيات ولكنهم لن يختلفوا قط فى أن المسيرى واحد من هؤلاء البسطاء الشرفاء الذين لا تملك إلاّ أن تحبهم وتعانق فيهم الصدق والوفاء .

* * *

كان المسيرى ضئيل الحجم كبير الروح .. قصير القامة عالى الهامة . كثير الصمت ثرثارًا باللمسة الحانية واللمحة الذكية والنظرة

النفاذة والأمل المطلق فى الغد .. وإرادة الحياة .

إن « مشوارا طويلا » ليس هو آخر كتب عبد المعطى المسيرى .. وإنما هو عمره الذى سفحه نضالاً طوال نصف قرن حتى طوته موجة من خضم اليوم الحزين .. ولم يبق من المسيرى إلّا اسما على لافتة مدرسة فى دمنهور ..

هذا الركود الأدبي لماذا ؟

لا يوجد في شيوخ جيلنا الأجلاء .. من يحمل همّ الثقافة والمثقفين ويتابع في وعي ودأب نتاج عصره في الشرق والغرب .. وينبض قلبه بالعشق النبيل للمثل العليا والضمير الأدبي الحيّ .. مثل أستاذنا الجليل د . زكي نجيب محمود .. أنضج الثمرات وأدناها قطوفًا في شجرة قرننا العشرين بعد أن دبّ في جذورها العريقة وهن الشيخوخة وقصفت رياح الردى غصونها النضرات فتساقطت ورقاتها الخضر في هبوب الخماسين وليالي الخريف .

وهو أب روحي بمعنى الكلمة خاصة بعد أن أقفر هذا العصر من الآباء الروحيين وإخوان الصفاء . وبعد أن لوت الريح بأغلب فروع الشجرة طه حسين والعقاد والمازني وأمين الخولي ومندور ..

وهو في طليعة المهتمين بفلسفة الفن والنقد الأدبي وله دراسات هامة في الشعر .. كشعر البارودي والشعر الحديث بجانب كونه فيلسوفًا وعالمًا جماليًا يهتم بالعمل الفني وحده دون الاهتمام بشخص صاحبه (فهل يسأل عن جبل أو نهر أو عن شروق وغروب قائلين

ما مغزى وما معنى ؟ هكذا يكون الموقف إزاء العمل الفنى لأنه خلق وإنشاء) .

ولا يمر عام إلاّ ونقرأ فيه لهذا الأستاذ الجليل حصاداً جديداً لتقييم ما حوله يضيف من عمق التجربة ونضج الرؤيا وصدق المجاهرة مايدعونا إلى الوقوف أمامه طويلا ..

وإذا كان إدمان الطرق على الأبواب كفيلا بأن تفتح .. فإن مداومة الدكتور زكى نجيب للتأمل والعكوف والتقييم دليل على صحوة ذهن وأصالة انتباه ويقظة وتحليل بلا صرخات أو اتهامات وإطلاق شعارات ودون بغية الإطلال بين الحين والحين من نوافذ أركان الأدب الصحفية برأى لاهث وصورة أو تعليق وعنوان مثير .. أو من خلال القنوات الأثيرية بحديث عاجل أو ثرثرة عابرة .. حول قضية من قضايا الأدب والفن حتى يظل الفنان فى « الصورة » وإلاّ تسيه القراء .. وكأنه لاعب كرة يلهج باسمه الناس لكثرة ما سدد من أهداف ..

ونسى الأديب أن الفنان الحق هو الذى تسعى إليه الصورة والتعليق والعنوان المثير .. وتأتى إليه الشهرة ولا يطير إليها ولا ينفق كما ينفق الحيوان وراءها لطول ما لهث وركض . !

وقد تعالت صرخات كثيرة وتتابعت بنفس النبرات والهتافات وأصبحت كأنها مواسم تروج فيها بضاعة دون غيرها .. وتتكاثر الآراء والأسماء وينفض الموسم دون قطاف أو حصاد .. ودون خلق

معركة أدبية واحدة مثمرة طوال تلك السنوات على غرار تلك المعارك الأدبية الخصبة التى أسفرت عن كتب ذات قيمة مثل حديث الأربعاء وحصاد الهشيم والديوان .

ولو رصدنا حركات الاستغاثة الأدبية وحملات النقد الموسمية لوجدناها صرخات مكبوتة بدأت بالهمس ثم علا صوتها تنعى ما كانت تنعاه وبنفس الكلمات ..

وكان أعلى هذه الصرخات انفعالا وغضبا صرخة يوسف إدريس فى الستينيات بجريدة الجمهورية حين طالب « بشجاع واحد » يتصدى لهذه الحمى السارية فى جسد الحياة الأدبية .. وطالب أيضا بوضع كمادات من الثلج حتى تبرد جبهة الأدب المحمومة ..

وفى منتصف السبعينيات . يعود يوسف إدريس ليصرخ صرخة إدريسية عنترية بجريدة الأهرام .. يقول فيها : « إن كل شىء يوك » .. الأدب والفن لا شىء .. الثقافة والمثقفون لا شىء .. الحياة الأدبية يوك .. قانعًا فى النهاية بالابتهال إلى الله أن ينزل الغيث على الأرض القاحلة وتحدث المعجزة .

وكتبنا أيامها ردًّا عليه . بأن الضمير الأدبى فى حياتنا الثقافية هو الذى « يوك » ولا شىء آخر .

وحين لا يجد صاحب أرخص ليالى والحرام من يصغى للصرخات يطلق صيحة أخيرة لعلها تصبح قذيفة تفتح ثغرة فى ميدان المعركة الراكد .. فيعترف غير قاصد بأن جيله أعطى أقصى

ما يكون العطاء وجرى فى السباق وأنهى الشوط أو كاد .. وأن الحكم عليه . والجياد ما زالت أحياء بعد تجرى فى حلبة السباق حكم جائر .

فيقول فى حديث صحفى له : « أنا آخر جيل العظماء » ..

وينبرى له واحد من فرسان الميدان أوتى بسطة فى الروح والجسم هو د . سمير سرحان ليقول له لست كذلك .. ويتهمه بأنه لم يقرأ هو وجيله من العظماء أبناء جيله البسطاء معاصريه ولاحقيه .

وإن كان سمير سرحان قصد بذلك إثارة قضية أدبية ظاهرها التصدى ليوسف إدريس وباطنها التنبيه على الشبان والتنويه به والدعوة إلى الفكاك من أسر الدائرة المغلقة لنفس الأعمال ونفس الأسماء .. فهو قصد حسن النيّة كان جديرًا بإثارة معركة أدبية فى حينها وإن كان ينتقص هذا القصد الطيب أن سمير سرحان وهو الناقد والكاتب المسرحى والجامعى أن يقدّم نماذج من هذا الأدب الجديد وأن ينوّه به ويبذل ما يستطيع ليقدم أصحابه .

وإن كانت موازين النقد والتقييم قد مالت يمنة أو يسرة أو صعودًا وهبوطًا فى حياتنا الثقافية فليس معنى هذا اختلال هذه الموازين وصواب تلك الأحكام .. لأن هذا معناه فساد معنى من المعانى الجميلة وهى العدالة .. وإنما معناه أن الأيدى التى أمسكت بميزان العدالة مالت حيث هواها أو هوى غيرها .. أو رعشت فى مهب الريح وهى معصوبة العينين فرجحت كفة دون أخرى .. فطالما

وجدت عملاً جديرًا بالذكر ومع ذلك لم يظفر صاحبه بنصيب يذكر من الإشادة والتقدير ثم ما أكثر ما وجدت أعمالا كان يكفيها الذكر القليل .. ومع ذلك فقد نفخ لأصحابها فى الأبواق ..

هذه صرخة صادقة موجزة المضمون فى وقت خلت فيه الساحة من حملة لواء النقد الجادين .. فاستباح المرعى كلّ من طلب الكلأ وأطلق العنان تحت الصداقات الفكرية والعلاقات الإعلامية لكل من يتصدر حلبة السباق دون موهبة حقيقية .

ونظرة عابرة إلى خريطة الحياة الثقافية فى وطننا الأدبى .. نجدها أشدّ ما تكون حاجة إلى إعادة رسمها من جديد .. وتغيير مقاييس المساحات فيها لكثرة ما انتشر فيها من لون أصفر ساد على لون الخضرة .

فالجيد نادر والعطاء قليل والمعاناة مفتقدة . والروابط الأدبية واهية .. والسلوك الفنى يخلو من الجمال والسمو بقدر ما يفتقد السلوك الأخلاقى نفس معانى الجمال والسمو .. والغرور آفة والجهل آفتان وإيثار اللين والدعة صار شعارًا والثرثرات أصبحت لونًا من ألوان الفن .. وضياع المواهب الجادة فى زحام الموكب صار لونًا من ألوان المأساة ..

لذلك .. تجاوزت تلك الخريطة أبعادها الجغرافية .. ليمتد إلى مجلات عواصم النفط العربى .. ذات المساحات الشاسعة والطباعة الفاخرة والأجر الجزيل ..

فهاجرت الأقلام المصرية بعيدا عن سماء الوطن لتلك المجلات التى يتسع صدرها لما تبدعه هذه الأقلام من قصص وأشعار .. وهربا من ضيق المجال وقلّة العائد وما يلقاه الأدباء فى صحفهم ومجلاتهم وإذاعاتهم من عنت وضيق وقلّة الأجر الذى لا يوازى ما يعانيه الأدباء والفنانون من مطاردات الضرائب ومغالاتها حتى آثر أغلبهم نشر إنتاجه دون مقابل فراراً من طلبات الاستدعاء والتقدير الجزافى وإخطارات الحجز - وعذابات السداد .. وكأننا دون غيرنا الصيد السهل المأمون لهم لأننا عاملون رسميون بالدولة لا نملك من قبضتها تهربا .. ولسنا أصحاب بوتيكات .

وآثر الباقون من أهل الكلمة الصادقة الاعتذار عن عدم المشاركة فى الكتابة أو التحدث فى برامج النقد الثقافية وأمسيات الفن والأدب فى الإذاعتين المرئية والمسموعة لنفس الأسباب .. أو الظهور لمامًا تحت سبب ما .

مما أفسح المجال لكثير من الهواة وأشباه المحترفين وعشاق الظهور ليقولوا ما يشاءون من أقوال ويصدروا ما يصدرون من أحكام ..

فأين النقاد والأمناء من ذلك ؟

وأين الكتاب والمجلة والصحيفة التى تعنى بالثقافة ؟ .

وما هو نصيب اللغة العربية أو قصيدة الشعر المغناة فى زحام الأغانى الرائجة الهابطة ؟.

خير جواب ما كتبه الدكتور زكى نجيب محمود فى كتابه « مجتمع جديد أو الكارثة » هاجم فيه الإقطاع الفكرى المستشرى فى مجتمعنا وفى تقاعس دور الجامعات .. ذلك الإقطاع الفكرى الذى يتمثل فى احتكار أسماء الكبار للشاشة والإذاعة والصحف أو تكرار أسماء دون غيرها فتروج لدى الناس ..

وكما طالب بالأمس القريب بمراجعة الموازين يطالب بعد خمس سنوات بثورة فكرية تهدم أركان المناهج البالية وينعى فى العصر افتقاده لوجهه الفكرى .

« ذلك لأن الناس عندما خلطوا بين المنزلة والمظهر .. فإذا ضمنت لنفسك منزلة اجتماعية بالمنصب الرفيع والانتساب لمواقع النفوذ والجاه فكن على يقين بأن أعمالك فى دنيا الفكر والأدب ستنال من التقدير أضعاف ما كانت لتناله لو كنت واحدا من عامة الناس .. فليس الكتاب الذى يصدره وزير كالكتاب الذى يصدره عابر سبيل » .

ويقول مرة أخرى موجزًا القضية فى سطور بأن الفن والفنان سبيلان لتحقيق أمل الحب ورضا الإنسان ولا يتحققان إلّا :

« إذا أفلت الإنسان من قبضة الدولة الواحدة فلا يجعل أدبه بشيرًا كما تريده تلك الدولة وإنما يوجه أدبه إلى الإنسان » .

وتتعاقب السنون فيعود ليقول منذ أيام قريبة على صفحات الأخبار .. ما قاله من سنوات خلت وكأنه ملّ القول والتكرار ولمح

نذر العاصفة القادمة فصاح صيحة دريد الشهيرة :

نصحتكم نُصْحى بمنْعرج اللوى
فلم تستبِينوا النصح إلاّ ضحى الغَدِ

فنعى فى مقاله الأدب والأدباء والشعراء وخواء الثقافة والمثقفين وأن معظم المبدعين عندنا سطحيون بل مفرغون من المادة الفكرية التى هى نسيج أدبهم .

وينبرى له الفارس الثانى د . محمدمحمد عنانى .. وهو ورفيقه د . سمير سرحان جوادا العربة الذهبية التى تحمل البريد الأدبى فى برارى الحياة الأدبية الآن فى رحلات منتظمة عبر الصحف والمجلات وخشبة المسرح وفى حماس ودأب .

انبرى شاهرًا سيف دون كيشوت يقاتل به الهواء ويدافع عن الأدباء ويحسن أدب الخطاب والحوار مع أستاذه الوقور فيلفته إلى نتاج أدباء جيله وإلى الظلم الذى لاقاه هذا الجيل وينكر التهم الموجهة إليه من ضحالة وانقطاع الجذور ونكوصه عن الإبداع ويبرر ذلك بظروف التطور وافتقاد التخصص مؤكدا بأن فى مصر إبداعات شتى داعيا الدكتور لمتابعة ما لا ينشر متابعته لما ينشر ليقف على هذه الإبداعات مرتكزاً على صندوق « باندورا » السحرى الذى قد يتفتح غطاؤه فجأة عن عبقريات جديدة ..

ولا مخالفة فى أن الإبداع الفنى خبىء هنا وهناك .. وأن الأرض

الطيبة التى أنبتت شوقى وطه حسين وسيد درويش أرض ولود خصبة قادرة على أن تلد المزيد .

وقد كانت كلمة الدكتور عنانى .. تكاد تكون الرد الوحيد والموضوعى على مقال الدكتور زكى نجيب .. ولكنها لم تفلح فى إثارة معركة يدخلها غيره من أهل النقد والأدب علها تسفر عن حصاد جديد .

ويرفع الدكتور شكرى عياد شعارًا آخر فيقول : إن المثقفين فى عزلة عن مجتمعهم والأدب ردىء والأدباء ضائعو الجهود والنقاد مشغولون بقضايا فنية محضة ويعترف بجدب الحياة الأدبية وأننا نعيش فى حالة جوع ثقافى وأن هذا الجوع بحاجة إلى جهد كل مثقف بدلا من أن ينشغل المثقفون بقضايا مجردة ويرى الحل فى حاجة الجماهير الكبيرة أن تتعلم تعليما حقيقيا لا زائفًا وهو ليس القدرة على القراءة ومشاهدة التليفزيون أو حفظ الأشياء كالببغاء ولكن فى أن تعى هذه الجماهير واقعها .. لأنه ليس بالضوء وحده يكون الفنان .. وليست الشهرة والذيوع دليل الإبداع والأصالة بل ربما وقع كثير من الموهوبين فى براثن الألقاب والشارات فصدأت موهبته .. وربما استدرج كثير من المبدعين إلى فخاخ الأثرة ومدارج الذيوع .. فانتهت رحلة إبداعهم عند هذا الحدّ .. وكأنما الموهبة الفنية مطيّة يركبها صاحبها لبلوغ مرامه القريب وهو الكسب والمجد واللقب .. وليست وسيلة لمرامه البعيد وهو العطاء

والإبداع .. وغاية فى نفس الوقت يتطلع إليها صاحبها لبلوغ أقصى درجات الصقل والاكتمال .

لذلك كانت أسبق الصيحات وأكثرها دفئا وحرارة تلك الكلمات التى كتبها د . زكى نجيب محمود .. بعنوان « فلنراجع الموازين منذ خمسة أعوام مضت » حيث قال :

« تساورنى الشكوك كلما أمعنت النظر فى حياتنا الثقافية وقارنت الأسماء التى لمعت فى سمائها بالأعمال التى رجحت بأصحابها فى موازين النقد والتقويم بحيث استحقت مكانتها تلك إذ يخيل إلىّ عند المقارنة بين تلك الأسماء والأعمال أن ثمة فجوات تتسع حينًا وتضيف وعيًا أسلم وأدق » .

وليت د . شكرى عياد وهو الناقد والكاتب المبدع ويكاد يتفق فى الرأى ود . نجيب على خواء الثقافة والمثقفين أن يدلونا كيف السبيل إلى التحام الكتاب بالجماهير ؟ وتحويل الخواء إلى امتلاء وهم فى مواقع قيادتها الجامعية والنقدية أقدر القادرين على ذلك .

وكما يتهم النقاد الأدباء يتهمهم الأدباء كذلك فقد صدرت عشرات الأعمال الأدبية دون أن يتصدّى لها ناقد بعرض أو تحليل .. وقد لا يرقى بعض الإنتاج إلى المستوى المنشود ولكن مهمة النقد مواكبة الحركة الأدبية وتوجيه الأدباء لا تركهم ينبحون فى الهواء ..

ثم أين دور الأساتذة من هذا كله وهم مجمعون على تشخيص

الداء . وما دور الجامعات والجامعيين وما تأثير الكتاب المدرسى خاصة كتب النصوص الأدبية والبلاغة وهم المشرفون على وضعها ؟ .

وأين هو الاستاذ الناقد الذى يفسح الوقت أو يجده ليجلس إلى تلاميذه وأدباء عصره ليدفع بهم إلى المستوى المنشود ؟ ..

ليس فقط الأدباء هم الذين يحملون العبء بل يحمل النصيب الأكبر منه أساتذة الجامعة الذين يتحملون مسئولية تخريج الأجيال عاما بعد عام ..

والحق أن حديث الدكتور زكى نجيب محمود جدير بأن يحتشد له الأدباء والشعراء خاصة ليقولوا كلمتهم فى حضرة معلّم كبير .. لما يقطر من مرارة وإدانة للجيل كله بقسوة وهو منهج لم نألفه فى أسلوب الدكتور كأستاذ للفلسفة هادئ الطبع ومعلم الأجيال كثير الصبر والاحتمال إلّا أن الكيل قد طفح كما يقولون .. وأصبح محراب الشعر والفن مفتوحًا على مصراعيه يدخله العابرون دون تدرج فى مسالك العبادات والمكابدات .

والشاعر عاشق عظيم لابد أن يمهر محبوبته وهى القصيدة بأغلى الكنوز ..ولابدّ أن يدثّرها بشغاف القلوب ويحفظها كالجوهرة الغالية بين الضلوع لا أن يتركها حافية الأقدام عارية الجسد فى الطرقات ..

إلّا أن الشاعر بالذات عند أستاذنا الدكتور مفقود هذه الأيام

لا يتقن فنّ العشق والطموح .. ولو فعل لزوّد نفسه أن يلج محراب الشعر بكل ما يلزمه من أدوات ومعرفة وعبور طويل بين جسر القديم والجديد والالتفات إلى الدروب التى سلكها الشعراء قبله .. فالشاعر كالمثّال لا ينحت العجين ولا الجير .. وإنما يشقّ جوف الصخر .

فكيف يكون الشاعر مستحقًّا لهذا اللقب وهو عاجز الأدوات مفرغ من نسيج المادة الفكرية .. بل ويخطئ فى القول والقراءة ؟ .

ويتحدّى الدكتور أن يقرأ شاعر من الشعراء قصيدة عربية دون أن يخطئ ؟ ويعلن عن دفع جائزة مالية لمن يفعل ..

لذلك .. فليسمح لنا أستاذنا الدكتور أن تقبل دعوته ويتنافس الشعراء على رهانه .. فإما أنه واثق تماما من سوء ظنّه فى الشعراء الذين لا يجيدون قراءة الشعر .. وإما أنه واسع الثراء يرى أن يبعثر نقوده فى الهواء !

فليتح لنا أستاذنا الدكتور لقاءً معه نجلس بين يديه ونأنس به ونصغى لعلّ واحدا فينا أو أكثر يربح الرهان .. فيزهو به وكأنه نال لذلك جائزة من جوائز الدولة الأدبية أو تقلّد قلادة من قلادات أعياد الأكاديمية !

آخر لقاء !
وآخر قصيدة

لم يكن أحد يدرى أنه اللقاء الأخير !

ولم أكن أدرى وأنا أعانقه وأشم ريح المسك من ثناياه أنه العناق الأخير ..

ولم يعلم كلانا حين جاءنى صوته المندى الحنون عبر الهاتف فى العيد الأخير كأنه قطرات الندى المعتقة بعبير الحب والصفاء وقد شابت صوته فى أيامه الأخيرة بحة عابرة تضفى عليه مزيدا من الجلال والحب .

لم أكن أدرى وقد امتد بيننا حبل الحديث كعادته ، وهو يفيض ويتدفق كالنهر . نتحدث حول الشعر واللغة والفن .. ونختلف حول بعض المعانى فإذا به المرجع الوافر والبحر الزاخر وإذا هو كعادة العلماء يصغى حياء ومهابة وهو يعرف أضعاف مايعرفه محدثه ويعترف بالصواب والخطأ لأنه لايعرف الغرور والادعاء .

ولم أكن أدرى ولاغيرى يدرى .. أن حديث العيد هو آخر الأحاديث ، وأن ما أسمعنيه من شعره هو آخر مايصافح سمعى من

صوته الرخيم وأنه حيل بينى وبين ذلك الصوت الأبوى الذى كنت ألتمس فيه الدفء فى أماسى الشتاء ، وأستروح فيه عبير العطر فى ليالى الصيف .. طيلة سنوات نعمت فيه بحديثه وبلقائه فى لجان الشعر والإذاعة .

وهكذا أحكم الموت ضربته وسدد سهمه لأغلى جوهرة فى كنوز الشعر .. واصطاد لؤلؤة العصر الغالية .. وكأنه صياد خرج فى الظلام يصطاد فريسته الغالية . أو يجمع المحارات واللآلئ ولايعود إلا بالصيد الغالى العزيز وكان شاعرنا ذلك الصيد العزيز !

* * *

كان نوعًا نادرًا من الرجال والشعراء ، قلبًا عامرًا بالحب والوفاء .. وشعرًا صادق الشعور والعطاء .. وعقلا يستوعب من التراث وعلوم الشريعة والقرآن واللغة وفنون العصر .. فى تفتح وإشراق لا فى تعنت وانغلاق ، كان يتألق وجهه بذلك النور الإلهى الذى تعرف به سيماء الصالحين .. وتراه دون أن تعرفه فتنجذب إليه كأنه الغمامة السارية تلتمس تحتها الظل والمطر .. يحف به إشراق خفى ، ويغشاه فيض نورانى وتظلله هالات من عطر الصفوة والأصفياء .

* * *

ذلك هو عبد الفتاح مصطفى الشاعر الكبير والكاتب الأديب ورائد الأغنية الراقية والبرامج المتفوقة ثقافة وتراثا وعلما ..

والأعمال الغنائية الشعبية البسيطة المميزة وصاحب النفحات الشعرية فى قصائد صوفية صافية .

كان آخر لقاء فى نهايات شهر رمضان الماضى فى أمسية شعرية ألقى فيها قصيدة الوداع .

قُمْ تـأمـل صنـعـة الله مليًّـا
أسـرج المصباح فى كفى وضيًّـا
أنت مشكـاتى ومصبـاحى وزيـتى
قم تـلألأ يـا فؤادى كـوكبيـا
أرسـل الفكـرة فى أكـوان ربى
تـنبـع الأكـوان منى وإليـا ..

وكأنه يختصر مسافات عمره فى لحظة شعر أخيرة حيث تدفق فى قصيدته تدفق الهتاف الأخير والتحليق المضىء فتحدث عن معجزات الخالق وآياته الكبرى ..

كنت جالسا وجاء متأخراً مهرولاً كأنه السحابة البيضاء الصافية تنحدر من الأفق وتهمى فوق الأرض فاتحاً ذراعيه كعادته ضاحكا ضحكته المتألقة الصادقة ، وقد ترقرق فوق جبهته قبس من نور وإيمان يعرف بسيماه المخلصون الواصلون ، متواضعاً بسيطاً خجولاً طليقا .. على عكس غيره من رفاقه الشعراء الذين يتخطرون مرحاً فوق الأرض ويميلون بالأعناق تيهاً وكبرا ...

ويلهجون بذكر أنفسهم بدلاً من أن يلهج بهم الآخرون

ويهرولون نحو مقاعد الصدارة ولغط الضوء ، وهو يفوقهم علو هامة وقامة ووفرة علم ودين .

وتعانقنا العناق الأخير .. وطلب منى أن ألقى قصيدة بعينها يحبها ففعلت .. ومازال عطره عالقا بثيابى حتى الآن .. وبسمته وحفاوته وبشاشته تملأ كل شيء حولى ... وبحة صوته الندية ترن فى مسمعى ... وكلماته وأشعاره تتردد عبر الأثير ...

ذلك لأن الشاعر الكبير عبد الفتاح مصطفى مازال حيا .. رحل بجسده وظلت روحه تتألق فى وهج كلماته وميراثه الشعرى والفنى طيلة رحلة أعوام عمره ..

وإن كانت ريح الموت توالى عصفها الرهيب بحدائق الشعر والشعراء فيتساقطون واحدا وراء آخر ... جيل الشباب مرة وجيل الشيوخ مرة أخرى ...

فإن عبد الفتاح مصطفى يظل نسيجًا وحده فى جيل الرواد .

ويظل شجرة سامقة شاهقة خضراء لا تقوى الرياح والعواصف على اقتلاعها ، لأن جذورها راسخة الإيمان بتراب الوطن وفروعها زاهية الخضرة بسقيا الروح وثمارها دانية القطوف لأنها ثمرات شجرة أصلها ثابت وفرعها فى السماء وليست هذه دمعة حزن أو بكاء أو كلمة تأبين ورثاء .

فقد كان صاحبنا الراحل الحبيب دائم البشاشة والحبور باسم السن مشرق الثغر ببسمة الرضا والحنان ... وضاح الجبين الذى

تعلوه غرة المؤمنين والأبرار ...

ولكنها كلمة وفاء عجلى ... كرحيله العاجل المفاجئ .. وماذا تجدى الدموع ونحن نزرفها عاما بعد عام وراء شاعر بعد شاعر ... ونبكيهم تباعا ... ونحن فى الحقيقة نبكى أنفسنا :

ويجرى على من مات دمعى وماله
بكيت ولكنى بكيت على نفسى !

فهرس

صفحة

صدر للمؤلف

١ - فصل فى الحكاية ديوان شعر ١٩٦٦ (دار الآداب)

٢ - أوراق الفجر ديوان شعر ١٩٦٧ (الكتاب العربى)

٣ - الغرباء دراسات ١٩٦٦ (الدار القومية)

٤ - مصر لم تنم شعر ١٩٧٣ (هيئة الكتاب)

٥ - دفتر الألوان شعر طبعة أولى ١٩٧٥ (هيئة الكتاب)

طبعة ثانية ١٩٨٤ دار المعارف

٦ - مسافر إلى الأبد شعر ١٩٧٩ هيئة الكتاب

٧ - إلا الشعر يامولاى شعر (طبعة أولى)

١٩٨٠ مكتبة روزاليوسف

طبعة ثانية ١٩٨٣ مكتبة مدبولى

٨ - رباعيات السلوم ١٩٨٠ مجلس الفنون

٩ - بعض هذا العقيق شعر ١٩٨١ دار المعارف

١٠- عشاق لكن شعراء دراسات طبعة أولى ١٩٨٠ دار المعارف

طبعة ثانية ١٩٨٣ دار المعارف

١١- شوقى أمير الشعراء لماذا ؟ دراسات ١٩٧٩ دار المعارف

١٢- أبو الوفا رحلة الشعر والحياة دراسات ١٩٨٠ دار المعا

١٣- الفلاح الفصيح مسرحية شعرية ١٩٨٢ هيئة الكت

١٤- ثرثرة على مائدة ديك الجن « قصيدة طويلة »

١٥- أغنيات حب صغير شعر

١٦- السفر على جواد الشعر أدب رحلات

١٧- فى بلاط الصحافة والأدب

تحت الطبع :

١٨- لعل وليت شعر

١٩- لهؤلاء أنتمى شعر

٢٠- عن الشعر والشعراء دراسات

رقم الإيداع		١٩٨٥ / ٥٠٦٤
الترقيم الدولي	٩٧٧-٠٢-١٤٤٩-٥	ISBN

١ / ٨٤ / ٣٢٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)





